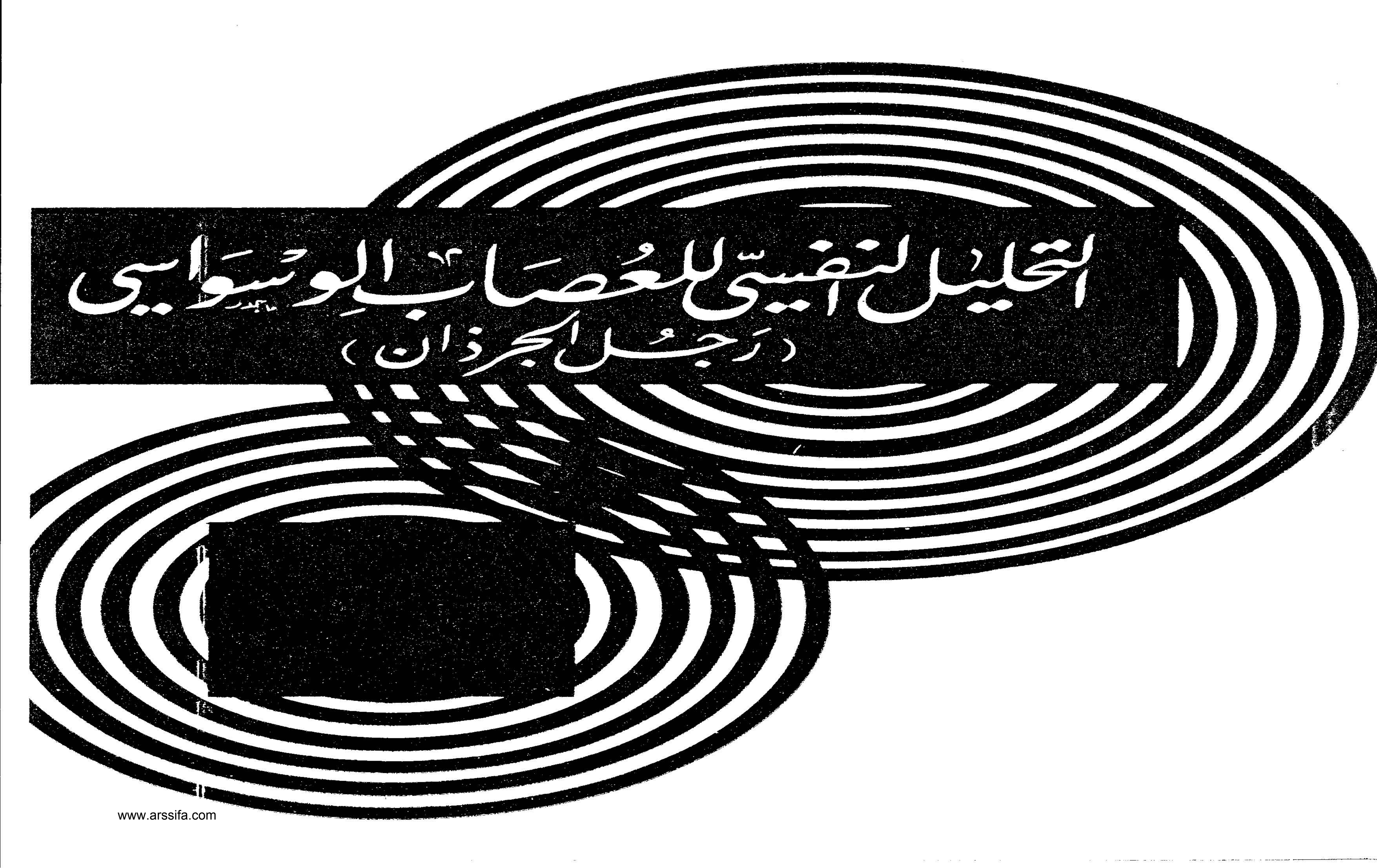
سيغموند فرويد

التحليل النفسي للعصاب الوسواسي

(رجل الجرذان)



سيغموند فرويد

التحليل النفسي للعصاب الوسواسي
(رجل الجرذان)

ترجمة

جورج طرابيشي

دار الطليعة للطباعة والنشر
بيروت

هذه ترجمة كتاب

L'HOMME AUX RATS

REMARQUES SUR UN CAS DE NÉVROSE OBSESSIONNELLE

(1909)

PAR

SIGMUND FREUD

IN

CINQ PSYCHANALYSES

CINQ PSYCHANALYSES

PRESSES UNIVERSITAIRES DE FRANCE
PARIS 1954

بيروت ـ لبنان
ص. ب ١٨١٣ ـ ١١
تلفون : ٣٠٩٤٧٠
٣١٤٦٥٩

الطبعة الأولى
تشرين ثاني (نوفمبر) ١٩٨٧م

تقديم

في عام ١٩٠٩ ، وبعد سنة من انتهاء العلاج ، وبموافقة من المريض ، نشر فرويد في مجلة **حولية التحليل النفسي وعلم النفس المرضي** ، هذه الـ « ملاحظات عن حالة عصاب وسواسي » التي ستشتهر في تاريخ حركة التحليل النفسي باسم **رجل الجرذان** .

كان « رجل الجرذان » ، الذي له من العمر ثلاثون عاماً ، قد اضطر إلى الانقطاع عن كل نشاط في مضمار الحياة العملية على الرغم من نباهته وذكائه وثقافته . فقد كان يعاني من اجترارات ذهنية مرضية (وساوس) يحاول اتقاءها بإنجاز طقوس معقدة وأفعال قهرية ينقض بعضها بعضاً . وكانت نفسه امتلأت رعباً لما سمع من أحد زملائه الضباط في الجيش تفاصيل طريقة صينية في التعذيب : إناء يعج بالجرذان يوضع على إليتي المنكل به فتشق طريقها إلى داخله بعد أن تفترس إسته . وقد صار هاجسه الأكبر أن ينزل مثل هذا العقاب بصديقته التي يحبها منذ سنوات عديدة وبأبيه المتوفى منذ سنوات عديدة أيضاً . والواقع أن قصة التعذيب بالجرذان أيقظت في نفسه ذكرى عقوبة تلقاها من أبيه في طفولته ، وكانت ذا صلة بفعل سيء أتاه من طبيعة جنسية . وكانت هذه العقوبة ، التي ارتبطت بالعنصر السادي من إيروسيته الشرجية ، قد أضرمت في نفسه نار حقد لا يخمد له أوار على أبيه . ولكن هذا الحقد بقي مكبوتاً في اللاشعور ، وأخلى مكانه على الصعيد الشعوري لحب ستاري عارم . وهذه الازدواجية الوجدانية هي التي وجدت حلاً كاذباً لها في العصاب الوسواسي ، وهو العصاب الذي يتميز بالاجترار الذهني ، وبالنكوص من الفعل إلى الفكر ، وبعزو

علاقات سببية إلى العالم الخارجي لا وجود لها إلاّ في ذهن المريض . ومن هنا كان تطير العصابي الوسواسي وإيمانه بالخرافة واعتقاده بأن أفكاره ، التي تدور حول الحب والكره في آن معاً ، لها ـ كالسحر ـ قدرة مطلقة .

وبالمقارنة مع النصوص التي نشرها فرويد عن تحليلات عينية لحالات عصابية ، فإن **رجل الجرذان** يبدو أقرب إلى الكمال من **حالة دورا** ومن **هانز الصغير** ، ولكنه يظل دون الكمال أيضاً بالمقارنة مع **رجل الذئاب**[1] .

ويجدر التنويه هنا بأن فرويد ، خلافاً لعادته ، لم يمزق المذكرات التي دونها في أثناء التحليل . ومن ثم فإنه ترك لنا ، علاوة على نص **رجل الجرذان** بحد ذاته ، تقارير الجلسات أو « اليوميات » التي بنى عليها هذا النص . وقد تضمنت هذه اليوميات بطبيعة الحال ملاحظات وتفاصيل شتى آثر فرويد إسقاطها حين حرر فيما بعد نص **رجل الجرذان** .

لقد دام تحليل رجل الجرذان وعلاجه أحد عشر شهراً استرد المريض في نهايتها عافيته النفسية . ولكن على الرغم من هذا النجاح التام الذي كلل به التحليل ، فإن النقاد قد لاحظوا أن تقنية التحليل النفسي لم تكن في حينه (١٩٠٨) قد أدركت مستوى الكمال الذي أدركته فيما بعد . ومن ثم فإن أسئلة كثيرة بقيت في نص فرويد غامضة ، أو بلا إجابة ، أو لم تطرح أصلاً . وقد أقر فرويد نفسه بقصور من هذا القبيل حين قال في هذا النص بالذات إن الحالات المحلَّلة التي تتوج عملياً بالشفاء لا تكون مثمرة بالقدر نفسه من الناحية النظرية .

ج . ط

(١) صدر النصان الأولان بترجمتنا عن دار الطليعة ، وسيصدر « رجل الذئاب » قريباً . « م » .

تتضمن الصفحات التالية :

١ ـ تقريراً جزئياً عن تاريخ حالة عصاب وسواسي ، وهي حالة يمكن أن تعد على درجة كافية من الخطورة نظراً إلى طول مدتها ، وإلى فداحة الأضرار التي أنزلتها بالشخص المعني ، وإلى تقييم المريض ذاته لها . وقد دام علاج هذه الحالة زهاء سنة تقريباً ، وأفضى إلى استرداد المريض لشخصيته كاملة وإلى زوال كفوفه .

٢ ـ بضع أفكار مقتضبة حول نشأة ظاهرات القهر النفسي وإوالياتها الرهيفة ، وسأعرض هذه الأفكار استناداً إلى هذه الحالة ، واستناداً كذلك إلى حالات أخرى كنت قد حللتها سابقاً . والغرض من هذه الملاحظات تكميل شروحي الأولى حول هذا الموضوع ـ وكنت نشرتها عام ١٨٩٦[1] ـ ومواصلتها .

إن ما ذكرته يستلزم ، على ما يخيل إلي ، تبريراً حتى لا يرسخ في ذهن القارىء أنني أعتبر أنا نفسي هذه الطريقة في عرض الأشياء نموذجية ومبرأة من كل نقد . والواقع أنه لزام علي أن آخذ بعين الاعتبار العقبات الخارجية ، وكذلك الصعاب النابعة من صميم هذا العرض . فقد كان بودي لو أنه كان في مستطاعي ، ومن حقي ، أن أذكر عن هذه الحالة أكثر بكثير مما ذكرت . ولكني لا أستطيع ، في الواقع ،

(١) **ملاحظات جديدة حول الأعصبة النفسية الدفاعية** ، الأعمال الكاملة ، م ١.

أن أقدم تاريخاً كاملاً للمعالجة ، إذ أن ذلك سيقتضي مني أن أخوض في تفاصيل حياة مريضي . غير أن فضولية الانتباه الذي تتابع به العاصمة نشاطي المهني تحول بيني وبين تقديم عرض مطابق كل المطابقة للحقيقة . والحال أني بتّ أميل إلى الاعتقاد أكثر فأكثر بأن التحريفات التي درجت العادة على اللجوء إليها لا تفيد ولا تجدي ، علاوة على أنها قابلة للطعن . فإن تكن هذه التحريفات هينة غير ذات شأن ، فإنها لا تبلغ هدفها ، وهو حماية المريض من الفضول المتطفل ، وإن تكن أبعد من ذلك مدى استلزمت تضحيات باهظة وحالت دون فهم السياق المرتبط ، تحديداً ، بوقائع الحياة الصغيرة . وهذا الوضع تترتب عليه المفارقة التالية : من الأيسر لنا بكثير أن نفشي علناً وللملأ أسرار المريض الأكثر حميمية ، بدون أن يتعرف أحد إلى حقيقة شخصيته ، من أن نصف طبائعه الشخصية الأكثر براءة والعادية تماماً ، لأن هذه الطبائع معروفة للناس جميعاً ومن شأنها أن تكشف عن هويته .

لئن كان هذا هو مبرري لما أجريته على تاريخ المرض والمعالجة هذا من اقتضاب شديد ، فإن لدي عذراً أعظم وجاهة بعد لكيلا أعرض إلّا بعض نتائج متفرقة من المباحث التحليلية النفسية في الأعصبة الوسواسية : فأنا أقر وأعترف بأني لم أتمكن إلى الآن من النفاذ إلى البنية البالغة التعقيد لحالة خطيرة من العصاب الوسواسي ومن استجلاء أمرها بأتم الوضوح . ومن جهة أخرى لا أحسب أن في قدرتي أن أجعل القارىء يستشفّ بوضوح كامل ، من خلال عرض لحالة من حالات التحليل النفسي ، وعبر الطبقات المتراكبة التي تجتازها المعالجة التحليلية ، تلك البنية التي يتعرفها التحليل أو يرهص بها . ومقاومات المرضى والكيفيات التي تفصح بها هذه المقاومات عن نفسها هي التي تجعل هذه المهمة شديدة العسر . على أنه لا بد لنا من الاعتراف بأن العصاب الوسواسي ليس بحد ذاته مما يسهل فهمه ـ

فهو أعصى على الفهم بكثير من حالة هستيريا مثلاً . وفي الواقع كان يفترض أن نتوقع أن يكون الأمر على العكس من ذلك . فالوسائل التي يستخدمها العصاب الوسواسي للإفصاح عن أفكاره الخفية الدفينة ، أي لغة هذا العصاب ، ما هي ، بنوع ما ، إلّا لهجة من لهجات اللغة الهستيرية ، بل هي لهجة كان يفترض بنا أن ننفذ إلى سرها بقدر أكبر من اليسر والسهولة ، نظراً إلى أنها أوثق صلة من لغة الهستيريا بالأشكال التعبيرية لفكرنا الشعوري . فلغة الوساوس براء ، في المقام الأول ، من تلك القفزة مما هو نفسي إلى التعصيب البدني ـ التحول الهستيري ـ التي يعزّ على ملكة الفهم عندنا أن تستوعب أمرها استيعاباً تاماً .

وإذا كان الواقع لا يؤكد على الدوام توقعاتنا ، فقد لا يكون مرد ذلك إلّا لأن معرفتنا بالعصاب الوسواسي أقل تضلعاً وتعمقاً . فالمرضى المصابون بأشكال خطيرة من العصاب الوسواسي يقبلون على التحليل أقل بكثير من إقبال مرضى الهَستيريا عليه . وهم يخفون حالتهم عمن حولهم ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ولا يفوّضون أمرهم إلى الطبيب إلّا متى ما بلغ بهم العصاب طوراً بحيث لو قارناه بالسل الرئوي لامتنع المصح عن استقبالهم . وأنا أعقد أصلاً هذه المقارنة لأننا نستطيع في حالات العصاب الوسواسي ، الطفيفة منها أو الخطيرة على حد سواء ، إذا ما عالجناها في الوقت المناسب ، أن نتوصل ، كما هو الشأن في ذلك المرض المعدي المزمن ، إلى جملة من نتائج علاجية باهرة .

في هذه الشروط لا يبقى علينا إلّا أن نعرض الأشياء على ذلك النحو الناقص والقاصر الذي نعرفها به والذي يحق لنا أن نكشف عنه . والمعلومات الجزئية التي نقدمها هنا ، والتي استأدانا الوصول إليها جهداً شاقاً مضنياً ، ستبدو في أغلب الظن لا تبعث على الرضى ، ولكن من الممكن أن يستكملها باحثون آخرون بعملهم ؛ وربما أمكن للجهود المشتركة المتضافرة أن تنجز مهمة هي أبهظ من أن يتولاها فرد بمفرده .

(١)
مقتطفات من تاريخ الحالة

رجل ما يزال في شبابه ، جامعي التأهيل ، حضر إلي وروى لي أنه يعاني منذ طفولته ، وعلى الأخص منذ أربعة أعوام ، من وساوس . والقوام الرئيسي لمرضه **هواجس** ، فهو يخشى أن يقع مكروه لشخصين عزيزين عليه للغاية : أبيه وسيدة نذر لها حباً مبطناً بالإجلال والتوقير . وقال فضلاً عن ذلك إنه تراوده **حفزات قهرية** ، ومنها مثلاً أن يجتز عنقه بموسى؛ كما تتشكل لديه **تحظيرات** تطال توافه الأمور . وقد ضيع سنوات من عمره وهو يعدل أفكاره ، ولذا أمسى متخلفاً في الحياة . والدورات العلاجية الكثيرة التي حاولها ما فادته واحدة منها بشيء ، باستثناء معالجة بالمياه في مصح ، على مقربة من بلدة س ... ؛ وربما كان مرد ذلك ، في ما يعتقد ، إلى أنه تعرَّف هناك إلى امرأة ، مما أتاح له أن يمارس العلاقات الجنسية بصورة مطردة . أما هنا ، أي في فيينا ، فلا تسنح له ، على ما قال ، الفرص لذلك . فنادرة هي صلاته الجنسية ، وإن وجدت فعلى فترات غير منتظمة . أما البغايا فمثيرات لاشمئزازه . وبوجه الإجمال ، كانت حياته الجنسية فقيرة ؛ ولم يلعب فيها الاستمناء ، في سنته السادسة عشرة أو السابعة عشرة ، إلَّا دوراً ضئيلاً لا يذكر . وقدرته الجنسية عادية على حد ما قال ؛ وكان أول جماع له وهو في السادسة والعشرين من العمر .

كان الانطباع الذي خلفه عندي المريض أنه رجل ذكي ، صافي الذهن . وقد سألته عن الأسباب التي تجعله يضع في مكانة الصدارة

معطيات تتصل بحياته الجنسية . فأجاب أن ذلك ما يعرفه عن نظرياتي . وهو على كل حال لم يطالع شيئاً من كتاباتي ، ولكنه فيما كان يتصفح يوماً واحداً من كتبي وجد تفسيراً لترابطات غريبة بين الألفاظ[١] ذكَّرته بقوة بـ « شطحاته » الفكرية الخاصة ، مما جعله يعقد العزم على تفويض أمر نفسه لي .

(أ)
بداية العلاج

في اليوم التالي قَبِل بأن يتقيد بالشرط الوحيد الذي يقتضيه العلاج : وهو أن يقول كل ما يرد إلى خاطره ، حتى ولو كان ذلك مؤلماً له ، وحتى لو بدت له خاطرته **عديمة الأهمية ، لامعقولة ، ولا صلة لها** بالموضوع . وقد تركت له أن يختار بنفسه الموضوع الذي يرغب في أن يبدأ به . فاستهلّ الكلام على النحو الآتي[٢] :

قال إن له صديقاً يكنّ له تقديراً عالياً . وإليه يتوجه كلما تسلطت عليه حفزة إجرامية ، ويسأله إن كان يحتقره ويعده مجرماً . وكان صديقه يشد في هذه الحال من إزره مطمئناً إياه إلى أنه رجل لا غبار عليه ، وربما اعتاد منذ طفولته أن ينظر إلى حياته من هذا المنظار . وكان لشخص آخر مثل هذا النفوذ عليه في ماضي حياته . هذا الشخص كان طالباً له من العمر تسعة عشر عاماً ، فيما لم يكن هو نفسه قد تخطى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة . ويبدو أن هذا الطالب كان

---

(١) **علم نفس أمراض الحياة اليومية** ، ١٩٠٤ .

(٢) جرى تحرير ذلك نقلاً عن ملاحظات كنت دونتها مساء عقب الجلسة ، وهو يقترب بقدر الإمكان من كلمات المريض نفسها . وإني لأحذر المحللين النفسيين بالمناسبة من تدوين ما يقوله المرضى في أثناء جلسة المعالجة ؛ فتشتت انتباه الطبيب يلحق من الأذى بالمرضى قدراً أكبر مما يمكن أن يبرره فرط الدقة في عرض ملابسات الحالة (لم تكن آلة التسجيل قد اخترعت بعد في زمن فرويد « م ») .

يكنّ له حباً ، وقد أذكى عند مريضنا حسه بقيمة ذاته إلى حد تصور معه أنه عبقري من العباقرة . وقد صار هذا الصديق فيما بعد مدرّساً له ، فغيّر على حين فجأة من سلوكه ، وراح يعامله معاملته لغبي . وفطن مريضنا في نهاية الأمر إلى أن مدرّسه مشغوف بإحدى شقيقاته ، ولم يعقد صلته به إلَّا ليجد منفذاً إلى أسرته . وكانت تلك أول صدمة كبيرة في حياته .

واستطرد يقول بلا تمهيد :

(ب)
الجنسية الطفلية

« بدأت حياتي الجنسية في وقت مبكر للغاية . وإني لأذكر مشهداً من سنتي الرابعة أو الخامسة (ذكرياتي ابتداء من سنتي السادسة كاملة) بزغ في ذهني على أجلى نحو بعد سنوات من ذلك . كانت عندنا مربية شابة رائعة الجمال ، تدعى الآنسة بيتر[٣] . كانت ذات مساء متمددة على أريكة ، متخففة اللباس ، مستغرقة في القراءة . فاستأذنتها في أن أندس تحت تنورتها . فسمحت لي بذلك ، بشرط ألا أخبر أحداً بالأمر . كانت لا تكاد ترتدي شيئاً ، فلمست أعضاءها

(٣) إن د. الفريد أدلر ، الذي كان يوماً من المحللين النفسيين ، نبه ذات مرة ، في ندوة خاصة ، إلى الأهمية البالغة التي ينبغي أن تُعزى إلى التصريحات **الأولى** التي يدلي بها المرضى . وهاكم دليلاً على ذلك . فالعبارات الاستهلالية التي نطق بها مريضنا تبرز التأثير الذي كان للرجال عليه ، أي تسلط الضوء الذي لعبه في حياته الاختيار الموضوعاني الجنسي المثلي ، وتشف بعد ذلك عن موضوعة أخرى لن تلبث فيما بعد أن تعاود بروزها بقوة : الصراع **والتعارض** بين الرجل والمرأة . وينبغي أن نربط بهذا السياق كونه قد سمى تلك المربية الجميلة الأولى باسم أسرتها الذي شاءت المصادفة أن يكون اسماً مذكراً . والحال أن من عادة الأوساط البورجوازية في فيينا تسمية المربية باسمها الشخصي ، وبهذا الاسم بالأحرى يكون مثولها في الذاكرة .

التناسلية وبطنها الي بدت لي غريبة مدهشة . ومنذئذ استبد بي فضول عارم ومعذِّب إلى رؤية الجسم الانثوي . ولا أزال أذكر ما كان يستبد بي من جزع ونفاد صبر شديدين وأنا في الحمام أنتظر أن تأتي المربية ، وقد تعرت ، لتدخل إلى الماء (كان ما يزال يؤذن لي عهدئذ في الذهاب إلى الحمام مع أخواتي ومربيتي) . وذكرياتي أشد وضوحاً ابتداء من عامي السادس . كان لدينا في ذلك الزمن مربية أخرى ، وكانت هي الأخرى شابة وجميلة ، وكانت لها في إليتيها بثور كان من عادتها أن تعصرها مساء . كنت أترقب هذه اللحظة لأشبع فضولي . وكذلك كان الأمر في الحمام ، وإن تكن الآنسة لينا أكثر تحفظاً من الأولى .

(وجواباً عن سؤال طرحته عليه : « كلا ، بالإجمال ما كنت أنام في غرفتها ، بل كان من عادتي أن أنام في غرفة والديّ ») . واستذكر مشهداً : « كان لي من العمر آنذاك سبع سنوات ولا بد[٤] . وكنا جالسين كلنا معاً : المربية ، والطاهية ، وخادمة أخرى ، وأنا ، وأخي الذي يصغرني بعام ونصف عام . كانت النساء الصبايا يتبادلن أطراف الحديث ، وفجأة سمعت الآنسة لينا تقول : « مع الصغير يمكن عمل ذلك ، لكن بول (أنا) شديد الخرق ، ومن المؤكد أنه سيفشل في العملية » . لم أدرك بوضوح ما كانت تعنيه بذلك ، لكني استشعرت مهانة ومذلة ، وطفقت أبكي . حاولت لينا أن تؤاسيني وروت لي أن خادمة عملت ذلك مع صبي صغير عُهد به إليها زج بها في السجن لعدة شهور . ولا أظن أنها فعلت معي أشياء محظورة ، لكنني كنت أتمادى في الحرية معها . فحين كنت أذهب إلى فراشها ، كنت أكشف عنها وألامسها ، وكان تدعني أفعل ذلك بلا اعتراض . لم تكن على قدر كبير من الذكاء ، وكانت حاجاتها الجنسية شديدة الإلحاح على نحو لا يخفى

(٤) سلّم فيما بعد باحتمال أن يكون هذا المشهد قد جرى متأخراً عن ذلك بعام أو عامين .

عن العيان . كانت في الثالثة والعشرين من العمر ، وكان لها طفل ، وقد تزوجها فيما بعد أبوه ، بحيث باتت اليوم « فراو هوفرات »[5] . وكثيراً ما ألتقيها إلى الآن في الطريق » .

« منذ عامي السادس صرت أعاني من الانتصاب ، وأعلم أني أتيت ذات يوم إلى أمي أشكو لها الأمر . وأعلم أيضاً أن ذلك تطلب مني أن أتغلب على بعض الوساوس ، إذ كنت أرهص بعلاقة ذلك الانتصاب بتخيلاتي الفكرية وفضوليتي . وقد استبدت بي ، في ذلك العهد أيضاً ، ولبعض الزمن ، فكرة مَرَضية مؤداها أن **والديّ يعرفان أفكاري** ، **وتفسيراً لذلك افترضت أني لا بد أن أكون أفصحت عن أفكاري بدون أن أسمع نفسي وأنا أنطق بها** . وأعتقد أنه هنا بالذات كانت بداية مرضي . كان هناك أشخاص ، خادمات ، يعجبنني كثيراً ، وكنت أرغب رغبة مضطرمة في **رؤيتهن عاريات** . لكن إذ كانت تخامرني هذه الرغبات ، كان يساورني أيضاً **إحساس بغرابة مقلقة**[6] ، **كما لو أنه سيقع شيء إذا ما فكرت بذلك ، وكما لو أنه علي أن أفعل كل ما بوسعي لأتلافاه** » .

(على سبيل المثال ، وجواباً عن سؤالي ، ذكر لي خوفه من **أن يموت أبوه**) « منذ نعومة أظفاري ، وعلى مدى سنوات طويلة ، كانت تشغل ذهني أفكار عن موت أبي فتسبب لي اكتئاباً شديداً » .

بهذه المناسبة علمت ، على دهش مني ، أن أباه ، وإن يكن

(٥) FRAU HOFRAT : لقب يطلق على زوجات المحامين والقضاة والمستشارين القضائيين في النمسا ، وهو يشبه بالعربية قولنا : « الحرم المصون » . « م » .

(٦) بالألمانية UNHEIMLICH : كلمة لا مقابل لها في اللغات الأخرى ، يترجمها الفرنسيون بـ L'INQUIÉTANTE ÉTRANGETÉ والانكليز بـ UNCANNY . ولفرويد مقال هام بهذا العنوان سوف يصدر قريباً بترجمتنا في « تطبيقات أدبية للتحليل النفسي » « م » .

موضوع وساوسه الراهنة ، قد توفي منذ عدة سنوات .

إن الظاهرات التي وصفها لنا مريضنا في الجلسة الأولى ، والتي يرجع زمنها إلى سنته السادسة أو السابعة ، لم تكن كما يعتقد بداية مرضه فحسب ، بل هي مرضه بالذات . فهي عبارة عن عصاب وسواسي كامل ، لا يفتقر إلى أي عنصر أساسي ؛ وهي في الوقت نفسه نواة عصابه اللاحق ونموذجه الأول ؛ وبنوع ما كيان عضوي ابتدائي لا نستطيع بغير دراسته أن نفهم التنظيم المعقد للمرض الراهن . فنحن نرى ذلك الطفل واقعاً تحت سلطان مقوِّم محدد من مقوِّمات الغريزة الجنسية ، هو التلصصية VOYEURISME التي عبرتْ عنها ، مراراً عدة وبقوة جامحة ، رغبته في أن يرى اللائي يعجبنه من النساء عاريات . هذه الرغبة تناظر الفكرة الوسواسية اللاحقة . ولئن لم تكن هذه الرغبة قد اتسمت بعد بطابع وسواسي ، فمرد ذلك إلى أن أنا الطفل لم يكن قد دخل بعض في تناقض تام مع هذه الرغبة ، ولم يكن قد استشعرها بعد على أنها شيء غريب عن نفسه . على أنه تشكلت منذ ذلك الحين في جانب ما من نفسه معارضة لهذه الرغبة ، إذ أن وجداناً مؤلماً كان يرافق بإطراد ظهورها[7] . ومن الجلي الواضح أن نفس ذلك الشهواني الصغير كانت تنطوي على صراع ؛ فإلى جانب تلك الرغبة الاستحواذية كان هناك أيضاً خوف استحواذي يرتبط ارتباطاً وثيقاً بها : فكلما فكر فيها ، تسلط عليه هاجس الخوف من وقوع شيء مروع . وقد اتشح هذا الشيء المروع ، منذ ذلك العهد ، بتلك السمة النمطية من اللاتعين التي لن يكون ثمة مناص ، مذاك فصاعداً ، من أن تتشح بها تظاهرات العصاب جميعها ، على أنه لا يعسر علينا أن نكتشف ما كان يختبيء خلف هذا اللاتعين لدى ذلك الطفل . ذلك أننا لو

(٧) أحرص هنا على التذكير بأنه جرت محاولات لتفسير الوساوس بدون اعتبار للوجدانية .

توصلنا الى معرفة مثال واحد محدد مما يعبر عنه العصاب الوسواسي بعموميات مبهمة ، فلنا أن نكون على ثقة من أن هذا المثال يمثل الفكرة الأولية والحقيقية التي كان هذا التعميم يرمي الى حجبها . وعلى هذا نستطيع أن نعيد بناء معنى الهاجس الاستحواذي على النحو التالي : « إذا راودتني الرغبة في رؤية امرأة عارية ، فمن المحتم عندئذ أن يموت أبي » . فالوجدان المؤلم يأخذ بصورة واضحة طابع **الغرابة المقلقة** UNHEIMLICH ، وتتولد عنه منذ ذلك الحين حفزات إلى فعل شيء ما لتفادي الكارثة ، حفزات شبيهة بالتدابير الدفاعية التي سترى النور لدى المريض لاحقاً .

هكذا نجدنا أمام حفزة إيروسية وبادرة تمرد عليها ؛ أمام رغبة (غير استحواذية بعد) وهاجس تخوفي معارض لها (له منذ ذلك الحين طابع استحواذي) ؛ أمام وجدان مؤلم ونزوع إلى إجراءات دفاعية . وتلك هي اللائحة الكاملة لعناصر عصاب . بل ثمة ما هو أكثر من ذلك : نوع من **تشكيل هذائي** ذي مضمون غريب مؤداه أن والديه يعرفان أفكاره ، لأنه كان يفصح عنها كما قال بدون أن يسمع نفسه وهو ينطق بها . ولن نجانب الصواب لو افترضنا أن هذا التفسير الذي صدرت محاولته عن طفل ينطوي على إرهاص غائم بالظاهرات النفسية الغريبة التي نسميها لاشعورية ، والتي لا يسعنا أن نستغني عنها في التعليل العلمي لهذه الظاهرات الغامضة . « إني أنطق بأفكاري بدون أن أسمع نفسي » : هذا يبدو أشبه بإسقاط على الخارج لفرضيتنا القائلة إن لدى الإنسان أفكاراً لا يعلم عنها شيئاً ؛ أو قل أشبه بإدراك من داخل النفس للمكبوت .

الأمر واضح : إن ذلك العصاب الطفلي الأولي كان يتضمن سلفاً معضلته وخُلْفه الظاهر ، مثله مثل أي عصاب معقد لدى الراشد . فما معنى فكرة الطفل التي تدور حول أن أباه لا بد أن يموت إذا ما راودته

الرغبة الجنسية المذكورة ؟ أهي مجرد لغو وخلف ، أم أن ثمة سبيلاً إلى فهم هذه الفكرة باعتبارها نتيجة محتمة لسيرورات وظاهرات سابقة ؟

إذا طبقنا على هذا العصاب الطفلي المعارف التي اكتسبناها من حالات أخرى ، فلا مناص لنا من الافتراض أنه وقعت للطفل في هذه الحالة أيضاً ، وقبل بلوغه عامه السادس ، خبرات رضّيّة ، منازعات وكبوتات غاصت في النسايـة ، لكنها خلفت وراءها ، على سبيل الرسابة ، مضمون الهاجس التخوفي الاستحواذي . وسوف يتبين لنا فيما بعد إلى أي حد تتوفر لنا المقدرة على استرجاع تلك الخبرات المنسية أو على إعادة بنائها بدرجة ما من اليقين . وبودنا ، بانتظار ذلك ، أن نؤكد على أهمية الواقعة التالية التي لم تكن في أرجح الظن بنت المصادفة : وهي أن نساية مريضنا الطفلية بلغت حدها الأعلى في عامه السادس .

إنني أعرف عدة حالات أخرى من العصاب الوسواسي المزمن بدأت هي الأخرى ، في سن مبكرة ، بمثل تلك الرغبات الشهوانية ، المصحوبة بهواجس سود وبنزوع إلى تدابير دفاعية . فهذه بداية نمطية تماماً ، وإن لم يكن ذلك هو النمط الوحيد الممكن . وثمة كلمة أخرى أود إضافتها بخصوص تجارب المريض الجنسية المبكرة ، قبل أن أنتقل إلى عرض الجلسة الثانية . فليس لنا أن نماري في أنها كانت على جانب كبير من الوفرة والفعالية . وكذلك كانت الحال في سائر حالات العصاب الوسواسي التي تسنى لي أن أحللها . وهي جميعها تتسم خلافاً لواقع الحال في الهستيريا ، بسمة مميزة : النشاط الجنسي المبكر . والحق أن العصاب الوسواسي يشف ، بأوضح مما تشف به الهستيريا ، عن أن العوامل التي تتمخض عن عصاب نفسي المنشأ لا تكمن في الحياة الجنسية الحالية للمريض ، بل في حياته الجنسية الطفلية . فالحياة الجنسية الحالية للمصابين بالعصاب الوسواسي قد

تبدو سوية كل السواء لعين الملاحظ السطحي ؛ بل كثيراً ما تكون العوامل الإمراضية وضروب من الشذوذ التي تكشف أقل شأناً بكثير مما يكشف عنه مريضنا .

(جـ)
الهاجس الاستحواذي الكبير

« أعتقد أني سأبدأ اليوم بأن أروي لك الحادثة التي حملتني على المجيء لاستشارتك . كان ذلك في شهر آب ، في أثناء المناورات في س ... كنت في حال شديدة السوء قبل هذه المناورات ، وكنت أتقلب على نار ضروب شتى من الوساوس ؛ ولكنها ما لبثت أن هدأت مع بداية المناورات . كنت أشعر بميل خاص إلى أن أثبت للضباط المحترفين أن الضباط الاحتياطيين قادرون لا على أن يتعلموا فقط ، بل كذلك على أن يبرهنوا على قوة تحملهم بدنياً . وفي ذات يوم انطلقنا بمسيرة قصيرة من س ... وفي أثناء الاستراحة أضعت نظارتي ، ومع أنه كان في مستطاعي أن أعثر عليها بسهولة ، فقد آثرت ألا أتسبب في تأخير تحركنا ؛ ومن ثم صرفت النظر عن الأمر وأبرقت إلى اختصاصيّ النظارات الذي كنت أتعامل معه في فيينا طالباً إليه أن يبعث إلي بنظارة أخرى مع عودة البريد . في أثناء تلك الاستراحة جلست بين ضابطين ، كان أحدهما نقيباً وذا اسم تشيكي ، وسوف يصير له شأن بالنسبة إلي . كنت أخشاه إلى حد ما ، **لأنه كان من الواضح أنه يحب القسوة** . أنا لا أزعم أنه كان شريراً ، لكنه كان قد صرح تكراراً ، في أثناء تناولنا وجبات الطعام ، أنه من أنصار العقوبات البدنية ، مما اضطرني إلى مناقضته بقوة . والحال أنه دار بيننا ، في أثناء تلك الاستراحة ، حديث روى خلاله النقيب المشار إليه أنه قرأ مرة وصفاً لنوع مروع حقاً من التعذيب يمارسونه في الشرق ... » .

هنا توقف المريض ونهض وسألني أن أعفيه من وصف

التفاصيل . فطمأنته إلى أنني أنا نفسي لا أستسيغ القسوة على الإطلاق ، وإلى أنني بالتأكيد لا أرغب في تعذيبه ، ولكني لا أملك أن أعفيه من شيء ليس في متناولي . فلكأنه يطلب إلي أن أهديه نجمين مذنَّبين[٨] . ذلك أن التغلب على المقاومات شرط للعلاج لا يحق لنا بحال التملص منه (كنت عرضت له مفهوم « المقاومة » في مستهل الجلسة ، حينما أخبرني بأنه لا بد له من أن يتغلب على أشياء كثيرة لكي يطلعني على الحادثة المشار إليها) . ومضيت أقول له إني سأفعل كل ما بوسعي لأسهِّل عليه سرده للحادثة ، وإني سأبذل قصارى لأحزر ما يلمح إليه . أكان قصده أن يتكلم عن الخوزقة ؟- كلا ، ليس هذا فالمحكوم عليه يشد وثاقه (كان شديد الغموض في الإبانة عن أفكاره حتى عزَّ علي أن أخمن للحال الوضعية التي يشد بها وثاق المنكَّل به) ، ويُقلب على إليتيه وعاء وضعت فيه جرذان ، فلا تعتم – هنا نهض وقد بدت عليه كل علائم الرعب والمقاومة – أن **تغوص** ... فاضطررت أن أقول متمماً : « في إسته » .

كان وجهه ينم ، كلما تطرق في حديثه إلى نقطة مهمة ، عن تعبير معقد وغريب ، لا يسعني أن أؤوله إلا على أنه **هلع من لذة مجهولة من قبله** . ومضى يقول بصعوبة بالغة : « في تلك اللحظة ومضت في ذهني فكرة أن ذلك يقع لشخص عزيز علي »[٩] . وجواباً عن سؤال طرحته عليه ، قال إنه لم يكن هو نفسه منفِّذ التعذيب ، وإن التعذيب كان يتم بطريقة لاشخصية . وسرعان ما أدركت ، بعد أن حضضته قليلاً ، أن تلك « الفكرة » كانت تتجه إلى السيدة التي يحبها .

---

(٨) أعفي وأهدي لهما بالألمانية لفظ واحد : SCHENKEN . « م » .

(٩) قال : « فكرة » ، إذ أن التعبير الأقوى ، « الرغبة » أو « الخوف » ، قد احتجزته الرقابة كما هو واضح للعيان . ولا يسعني لسوء الحظ أن أقدم صورة دقيقة عن اللاتعيين المميز لطريقة سرده .

توقف عن سرده ليؤكد لي كم تقع هاتان الفكرتان من نفسه موقع النفور ، وكم يستشعرهما غريبتين عن شخصه ، وليفيدني أن كل ما يلي يتوالى في ذهنه بسرعة خارقة . فإلى جانب الفكرة ، كان هناك أيضاً « الجزاء » ، أي الإجراء الدفاعي الذي لم يكن أمامه مناص من تحمله ليحول دون مثل ذلك التخييل أن يتحقق . فحين تكلم النقيب عن ذلك التعذيب المروع وبزغت الأفكار في ذهنه ، استطاع أن ينجح أيضاً في التخلص من **الفكرتين** بصيغته المعتادة : « ولكن ! » (مصحوبة بإشارة شجب) ، وبالعبارة التي يرددها لنفسه : « دعك ، ما هذا الذي تتخيله ؟ » .

هذه التثنية (الفكرتان) أثارت عجبي ، كما لا بد أنها استعصت على فهم القارىء . فنحن لم نسمع حتى الآن إلَّا عن فكرة واحدة ، تلك التي تتصل بالسيدة التي تعاني من التعذيب بالجرذان . وعندئذ لم يجد بداً من أن يعترف بأن فكرة أخرى ومضت في ذهنه في وقت واحد مع الأولى ، فكرة أن التعذيب يطال أيضاً أباه . ونظراً إلى أن أباه قد مضى زمن طويل على وفاته ، وبما أن هذا الهاجس كان بالتالي أبعد عن المعقولية من الآخر ، فقد حاول أن يرجىء الاعتراف به لفترة أخرى من الوقت .

في مساء اليوم التالي سلّمه النقيب المشار إليه طرداً بريدياً يُسلّم مقابل الدفع ، وقال له : « لقد سدد الملازم أ[١٠] المبلغ عنك ، فعليك أن ترده إليه » . وكان في الطرد النظارة التي أوصى عليها برقياً . وفي تلك اللحظة ومضت في ذهنه فكرة « جزاء » : **ينبغي ألا أرد المال وإلا فإن « ذلك » سيقع** (أي أن التعذيب بالجرذان سيصير أمراً واقعاً بالنسبة إلى أبيه وإلى السيدة) . وعندئذ بزغ في ذهنه ، بمقتضى مخطط كان مألوفاً لديه ، أمر أو ضرب من القسم لمكافحة الجزاء :

---

(١٠) تكاد الأسماء أن تكون هنا عديمة الأهمية .

« **عليك أن تسدد للملازم أ الكورونات ٣,٨٠** ... » ، وقد تمتم بهذه الكلمات بصوت يكاد لا يكون مسموعاً .

بعد ذلك بيومين انتهت المناورات ، وقد أمضى مريضنا ذينك اليومين يجاهد ليعيد إلى أ ذلك المبلغ الزهيد . ولكن محاولاته هذه كانت تصطدم أكثر فأكثر بصعاب **لا صلة لها به في الظاهر** . فقد حاول أول الأمر سداد المبلغ بوساطة ملازم كان في طريقه إلى مكتب البريد . لكن حين أعاد إليه هذا الأخير المال لدى رجوعه قائلاً إنه لم يلتق هناك الملازم أ ، داخله سرور كبير . ذلك أن هذه الطريقة في الوفاء بقسمه ما كانت لترضيه ، نظراً إلى أنها لا تتفق مع فحوى القسم : **عليك** أن تسدد للملازم أ المال . وأخيراً التقى مريضنا بالملازم أ ، غير أن هذا الأخير رفض أخذ المبلغ ، مصرحاً أنه لم يدفع عنه شيئاً وأنه لا علاقة له بالبريد وأن الملازم ب هو المكلف به . وقد أسقط في يد مريضنا لعدم قدرته على الوفاء بقسمه ، نظراً إلى أن البند الأول كان مغلوطاً . وراح ذهنه يتفتق عندئذ عن أغرب الخطط ، ومنها أنه سيذهب مع الضابطين (أ) و (ب) إلى مكتب البريد ، وهناك سيدفع أ لمستخدمة البريد الكورونات ٣,٨٠ كيما تسلمها إلى ب ، وعندئذ سيسدد هو ، أي مريضنا ، طبقاً لفحوى القسم ، الكورونات ٣,٨٠ إلى أ .

لن يدهشني أن يقف القارىء عاجزاً عن متابعة ما عرضته عليه . فالقصة المفصلة التي رواها لي المريض عن الأحداث السابقة لذينك اليومين وعن ردود فعله على هذه الأحداث كانت مليئة بالتناقضات الداخلية وتبدو في غاية الإلتباس . وإنما بعد أن سرد القصة للمرة الثالثة أفلحت في أن ألفت نظره إلى ما تنطوي عليه من نقاط مبهمة كثيرة ، وفي أن أكشف له عما تحفل به من نسايات كاذبة ومن ضروب نقل . وسأغض النظر هنا عن التفاصيل ـ فنحن سنطلع على ما هو أساسي فيها عما قليل ـ وأود فقط أن أذكر أن المريض صار في نهاية

تلك الجلسة الثانية في حال من الذهول والتخليط . وقد دعاني مراراً « سيدي النقيب » ، وربما كان ذلك لأنني لفتُّ نظره في مستهل الجلسة إلى أنني لست قاسياً مثل النقيب م ، وإلى أنه ليس في نيتي أن أعذبه في غير طائل .

في أثناء تلك الجلسة علمت ، فضلاً عن ذلك ، أنه منذ ابتداء وساوسه ، وبصدد جميع هواجسه السابقة المتعلقة بالمصائب التي يمكن أن تقع لأشخاص أعزاء عليه ، كان يتصور أن العذابات ستطالهم لا في هذه الدنيا فحسب ، بل كذلك في الأبدية ، في الآخرة . وكان حتى عامه الرابع عشر أو الخامس عشر مؤمناً صادقاً في تدينه . ومنذئذ تطور حتى صار اليوم من الملاحدة . وقد وجد حلاً لهذا التناقض[11] عن طريق الاستدلال التالي : « ماذا تعرف عن الحياة في الآخرة ؟ ماذا يعرف عنها الآخرون ؟ وبما أنه من المستحيل معرفة شيء عنها ، وبما أنك لا تجازف بشيء ، إذن فافعل » . وكان هذا الرجل ، الذي هو في العادة على جانب كبير من الذكاء ، يعتقد أن هذا الاستدلال لا غبار عليه ، وكان يستخدم على هذا النحو لايقينية العقل البشري فيما يتصل بهذه المشكلة لصالح أفكاره الدينية المهجورة .

أكمل المريض في أثناء الجلسة الثالثة قصته البليغة الدلالة عن محاولته الوفاء بقسمه القهري : ففي ذلك المساء انعقد اجتماع الضباط الأخير قبل نهاية المناورات . وكان عليه هو أن يرد على النخب الذي شربه الحضور تكريماً لأولئك « السادة الاحتياطيين » . فتكلم وأحسن الكلام ، ولكن كما لو أنه يتكلم في نومه ، إذ كان قسمه لا يزال يعذبه في قرارة نفسه . وقضى ليلة رهيبة ؛ كانت الحجج والحجج المضادة تتصارع في نفسه ؛ وكانت الحجة الرئيسية بطبيعة الحال أن البند

(١١) أي التناقض بين إلحاده ، وبالتالي إنكاره لوجود الآخرة ، وبين وساوسه التي تصور له أن العذاب سيطال أعزاءه في الحياة الأبدية أيضاً . « م » .

الأول في قسمه ، وهو أن الملازم أ دفع عنه المبلغ ، لم يكن يطابق الواقع . وقد عزَّى مريضنا نفسه بالقول بينه وبين نفسه إن كل شيء لم ينته بعد ، وذلك ما دام الملازم أ سيرافقه في الغد في شطر من الطريق إلى ي[12] ، محطة السكة الحديدية . ومن ثم سيكون أمامه متسع من الوقت يسأله معروفاً . ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وترك أ يرحل بدونه . غير أنه كلف وصيفه بأن يذهب ويخبر أ بأنه ينوي زيارته بعد ظهر ذلك اليوم . ووصل مريضنا إلى المحطة في الساعة ٩,٣٠ ، وأودع أمتعته فيها ، ثم قام بجولة للتبضع في البلدة الصغيرة ، عاقداً العزم على زيارة أ بعد ذلك . وكانت القرية التي يقيم فيها هذا الأخير تقع على مسافة زهاء ساعة بالعربة من بلدة ي . وكانت الرحلة بالسكة الحديدية إلى الموضع الذي يقع فيه مكتب البريد المشار إليه تستغرق ثلاث ساعات . وهكذا تهيأ له أنه يستطيع ، متى ما أنجز خطته المعقدة ، أن يعود في الوقت المناسب إلى ي ليستقل منها القطار المسائي إلى فيينا . وكانت الأفكار التي يناقض بعضها بعضاً في ذهن مريضنا هي من جهة أولى : « ما أنا إلاّ جبان ، فواضح للعيان أني أريد أن أتحاشى إزعاج طلب ذلك المعروف من أ ، وبالتالي نظره إلي على أني مجنون ، ولهذا السبب أرغب عن الوفاء بقسمي » ، ومن الجهة الأخرى : « إنه لمن الجبن على العكس أن أفي بهذا القسم ، لأنني لا أرغب في فعل ذلك إلاّ لأتخلص من وساوسي » . وروى لي أنه في كل مرة كانت تتعادل في ميزان محاكماته كفتا حجتين متناقضتين ، كان من عادته أن يسلس قياده لأحداث عارضة ، وكأنما لمشيئة إلهية . ولهذا السبب رد بالإيجاب حين سأله حمال في المحطة : « ألقطار الساعة العاشرة ، يا سيدي الملازم ؟ » . وعلى هذا سافر في الساعة العاشرة ، بعد أن تدبر

(١٢) هي في الأصل P ، ولكننا لم نترجمها إلى ب تحاشياً للخلط مع الملازم ب . « م ».

لنفسه أمراً واقعاً[١٣] أراحه كثيراً . واستحصل بعد ذلك ، لدى أحد مستخدمي عربة المطعم ، على تذكرة للغداء . وعند أول وقفة للقطار خطر له أنه ما يزال أمامه متسع من الوقت لينزل ، ولينتظر القطار القادم من الاتجاه المعاكس، وليذهب إلى ي ، وليركب عربة إلى الموضع الذي ينزل فيه الملازم أ ، وليرحل معه على مدى الساعات الثلاث إلى المكان الذي يوجد فيه مكتب البريد ، الخ . وما أمسكه عن ذلك كله سوى أنه كان حجز لنفسه مكاناً للغداء في عربة المطعم . غير أنه لم يغسل يده من مشروعه ، بل أرجأ تنفيذه إلى وقفة القطار التالية . ثم راح يرجئه مرة بعد أخرى من محطة إلى أخرى ، إلى أن وصل إلى محطة بدا له أنه من المستحيل أن ينزل فيها نظراً إلى وجود أقارب له في تلك البلدة . وعلى هذا صمم على متابعة سفره إلى فيينا ليلتقي صديقه هناك وليشرح له الموقف وليعود بقطار الليل إلى ي إن ارتأى صديقه ذلك . ولما أعربت له عن شكي في أن تكون ثمة إمكانية مادية لتنفيذ ذلك ، أكد لي أنه كانت ستتاح له ما بين وصول قطاره إلى فيينا وقيام القطار الآخر منها مدة نصف ساعة . ولما بلغ إلى فيينا لم يلتق صديقه في المطعم الذي كان يتوقع أن يجده فيه ، ولم يصل إلى شقة هذا الأخير إلاَّ في الساعة الحادية عشرة ليلاً ، فشرح له وضعه في الليلة نفسها . وقد ذهل الصديق إذ وجد مريضي لا يزال يشكِ في أن الأمر ليس أكثر من مجرد وساوس ، وطمأنه بحيث تسنى له أن يقضي ليلة هادئة ، وفي صباح اليوم التالي ذهب معه لإرسال الكورونات الـ ٣,٨٠ إلى مكتب البريد الذي كان وصل إليه الطرد المحتوي على النظارة .

لقد أتاح لي هذا التفصيل الأخير أن أكشف ما في قصته من تحريفات . فما دام أرسل المبلغ ، بعد ما رده صديقه إلى رشده ، لا

---

(١٣) بالفرنسية في النص : UN FAIT ACCOMPLI . « م ».

إلى الملازم أ ، ولا إلى الملازم ب ، وإنما إلى مكتب البريد بالذات ، فمعنى ذلك أنه كان يعرف ، بل لا بد أنه كان يعرف حتى قبل رحيله إلى فيينا أن الكورونات الـ ٣,٨٠ لا يدين بها **لأحد آخر سوى لمستخدمة البريد** . وبالفعل ، اتضح أن مريضي كان يعرف ذلك قبل أن يخطره النقيب م بضرورة التسديد ، وقبل القسم ، لأنه يذكر الآن أنه كان اجتمع ، قبل لقائه بالنقيب القاسي بعدة ساعات ، بنقيب آخر تولى اطلاعه على حقيقة الوضع . فقد روى له هذا الضابط ، حين سمع أسمه ، أنه كان في مكتب البريد منذ بعض الوقت ، وأن السيدة الشابة التي تعمل فيه سألته إن كان يعرف الملازم هـ (أي مريضنا) الذي وصل برسمه طرد يُسلَّم مقابل الدفع . وما كان النقيب يعرفه ، لكن المستخدمة قالت إنها تثق بذلك الملازم المجهول ، وإنها ستدفع عنه المبلغ . وعلى هذا النحو تسلّم مريضنا النظارة التي كان أوصى عليها . وقد أخطأ النقيب القاسي حين طلب إلى مريضنا لما سلمه الطرد أن يسدد الكورونات الـ ٣,٨٠ إلى الملازم أ .و لا بد أن مريضنا فطن إلى هذا الخطأ ، ولكنه أقسم مع ذلك قسمه ، بانياً إياه على هذا الخطأ ، وهو القسم الذي صار مصدر عذاب له . وقد أخفى عن نفسه وعني ، في سرده للقصة ، وجود ذلك النقيب الآخر ووجود تلك المستخدمة الواثقة به في مكتب البريد . بيد أنني أقر بأن هذا التصحيح ما كان من شأنه إلاَّ أن يجعل سلوكه أشد إمعاناً في اللامعقولية وأعصى على الفهم مما كان يبدو عليه من قبل .

بعد أن غادر المريض صديقه وآب إلى أسرته ، استبدت به شكوكه من جديد . ذلك أن حجج صديقه ما كانت تختلف عن تلك التي يرددها بينه وبين نفسه ، وهو لم ينخدع بسبب طمأنينته العابرة التي يعلم أن مردها فقط إلى التأثير الشخصي لذلك الصديق عليه . وقد كان قرار مريضنا بالذهاب لاستشارة طبيب يندرج ببراعة في إطار « هذيانه » ، وذلك على النحو التالي : فقد كان في نيته أن يطلب من

الطبيب شهادة فحواها أنه كان من الضروري له كيما يبرأ أن يتصرف حيال أ على ذلك النحو الذي صوره له خياله ، وكان وطيد الأمل بأن أ سيقتنع بكل تأكيد بفضل هذه الشهادة فيقبل منه الكورونات الـ ٣,٨٠ . والمصادفة التي أوقعت بين يديه واحداً من كتبي هي التي وجهت اختياره نحوي . ولكنه ما عاد عندي إلى الكلام عن تلك الشهادة . فهو لم يطلب مني إلَّا طلباً معقولاً للغاية ، وهو أن أخلصه من وساوسه . وبعد ذلك بعدة شهور ، ولما بلغت مقاومته ذروتها ، استشعر في نفسه من جديد إغراء يدعوه للذهاب إلى بلدة ي ، ليلاقي الملازم أ، وليمثل معه مهزلة رد المال إليه .

(د)
مدخل إلى فهم العلاج

أرجو القارىء ألا يتأمل أن يعلم حالاً ما يمكن لي أن أقوله بصدد هذا الوسواس الشديد الامعان في اللامعقولية (وسواس التعذيب بالجرذان) . فالتقنية التحليلية النفسية الصحيحة تفرض على الطبيب أن يلجم فضوله وأن يدع المريض يختار بحرية الموضوعات التي يتعاقب واحدها بعد الآخر في أثناء التحليل . وعلى هذا فقد استقبلت مريضي في الجلسة الرابعة طارحاً عليه هذا السؤال : « في أي موضوع ستواصل اليوم الكلام ؟ » .

أجاب : « لقد عقدت العزم على إخبارك بما أعتقد أنه مهم وبما يعذبني من البدء » . وطفق يروي لي جميع تفاصيل مرض أبيه الذي قضى ، قبل تسعة أعوام ، بانتفاخ الرئة . وقد سأل مريضي يوماً الطبيب ، وهو يحسب أن الأمر عند أبيه مجرد نوبة عابرة ، متى يمكن اعتبار أن كل خطر قد زال . فأجابه الطبيب : « مساء بعد الغد » . وما خطر له ببال أن أباه يمكن أن يموت قبل هذا الميعاد . وفي الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء ذلك اليوم رقد لساعة من الزمن ،

وحينما استيقظ في الواحدة أنبأه صديق طبيب أن أباه قد توفي . ولام مريضنا نفسه على أنه لم يحضر وفاة والده ، وقد اشتدت هذه المآخذ الذاتية حين أبلغته الممرضة أن أباه تلفظ باسمه في الأيام القليلة الماضية ، وقد سألها حينما دنت من سرير المحتضر : « أأنت بول ؟ » . وقد تراءى لمريضنا أن أمه وشقيقاته ينحين على أنفسهن بمثل ما أنحى به من لائمة على نفسه ؛ ولكنهن ما تكلمن عن ذلك قط . على أن التأنيبات التي كان ينهال بها على نفسه لم تكن في بادىء الأمر مؤلمة ، لأن المريض لم يستوعب موت أبيه . وكثيراً ما كان يتفق له ، إذا ما سمع نكتة جيدة ، أن يقول لنفسه : « هذه سأحكيها لأبي » . وكانت مخيلته أيضاً مشغولة بصورة المتوفى ، بحيث كان في كثير من الأحيان كلما دلف إلى حجرة توقع أن يلقاه فيها ؛ وإذا ما سمع الباب يطرق قال في نفسه : « هوذا أبي قد حضر » . ومع أنه لم ينسَ قط أن أباه قد توفي ، فإن توقعه لهذا الظهور الشبحي لم يكن يرتدي أي طابع مرعب ، بل كان ، على العكس من ذلك ، يتوق بقوة إلى هذا الظهور . وإنما بعد مرور عام ونصف عام استيقظت فيه ذكرى إهماله وتقصيره ، فراحت تسيمه خسفاً وعذاباً ، حتى داخله الاعتقاد بأنه مجرم . وكانت المناسبة التي أطلقت هذه التبكيتات وفاة زوجة عم له وزيارة تعزية قام بها إلى بيتها . وابتداء من ذلك اليوم شمل بشطحاته الخيالية والآخرة. وكانت النتيجة المباشرة لهذه الأزمة كفاً خطيراً لقدرته على العمل[١٤] وقد روى لي أن كلمات صديقه المعزية ، هذا الصديق الذي كان يفند

(١٤) أن وصفاً أكثر تفصيلاً لهذه الواقعة أتاح لي أن أفهم على نحو أفضل تأثيرها على مريضنا . فقد هتف عمه ، زوج المتوفاة ، منتحباً : « غيري من الرجال يبيحون لأنفسهم متعاً شتى ، أما أنا فلم أعش إلَّا من أجل هذه المرأة ! » . وقد افترض مريضنا أن عمه يلمِّح إلى أبيه، فانتابته الشكوك بصدد الوفاء الزوجي عند هذا الأخير . وعلى الرغم من أن عمه نفى نفياً قاطعاً هذا التأويل لأقواله ، فقد بقي أثرها فيه مستمراً .

دوماً تبكيتاته دامغاً إياها بالشطط والغلو ، هي وحدها التي كانت تشد من أزره وتمكّنه من المضي في الحياة .

انتهزت هذه السانحة لأقدم له فكرة أولية عن العلاج التحليلي النفسي . فحينما يكون هناك اختلاف بين مضمون فكرة من الأفكار وبين شحنتها الوجدانية ، أي بين شدة التبكيت وسببه ، يقول غير أهل الاختصاص إن الوجدان أقوى بكثير من سببه ، أي أن التبكيت فعال فيه ، وأن الاستدلال الذي يستند إليه باطل ، كأن يعتقد الشخص نفسه ، كما في مثال مريضنا ، مجرماً . أما الطبيب فيقول على العكس : كلا ، إن الوجدان مبرر ، والإحساس بالذنب في محله ، لكنه ينتمي إلى مضمون آخر ، هو منه مجهول (لاشعوري) ، والبحث عنه هو المطلوب . والمضمون المعروف للفكرة لم يحتل مكان المضمون المجهول إلّا بفضل ترابط زائف . ولكن بما أننا لم نتعود أن نستشعر في أنفسنا وجدانات قوية بدون مضمون فكروي ، فإننا نتخذ من مضمون آخر بديلاً عنه يكون مطابقاً له بقدر أو بآخر ، مثلنا في ذلك مثل الشرطة التي إذا ما عجزت عن اعتقال جانٍ ارتكب جريمة قتل توقف آخر بدلاً منه . والترابط الزائف هو وحده الذي يفسر عجز العملية المنطقية عن مواجهة الفكرة الاستحواذية . وأنهيت كلامي بالقول إن هذه النظرة الجديدة للأمور قد تثير للوهلة الأولى ألغازاً كبرى : وبالفعل ، كيف يمكن للمريض أن يسلّم بصحة تأنيبه لذاته باعتباره مجرماً بحق أبيه ، وهو الذي يعلم أنه لم يرتكب جرماً ضده ؟

في الجلسة التالية أبدى اهتماماً أكبر بشروحي ، بيد أنه اجترأ ، على حد قوله ، على مكاشفتي ببعض شكوكه : فكيف يمكن أن يكون لمثل ذلك التفسير ، الذي يرى أن التبكيت والاحساس بالذنب لهما ما يبررهما ، تأثير علاجي ؟ فأجبته أن ليس التفسير بحد ذاته هو الذي يكون له هذا التأثير ، وإنما الاهتداء إلى المضمون المجهول الذي به يرتبط التبكيت . فقال : « أجل ، على هذه النقطة تحديداً كان ينصب

سؤالي » . فشرحت له باقتضاب **الفوارق السيكولوجية بين الشعور واللاشعور** ، والبلى والاهتراء الذي يتعرض له كل ما هو شعوري ، بينما يبقى اللاشعوري غير قابل نسبياً للتغيير ، ممثلاً له على ذلك بالقطع الأثرية الموجودة في مكتبي[١٥] . فقد جاءت هذه القطع من قبور وأضرحة ، وانطمارها هو ما حفظها من البلى . وبومباي لم تتحول إلى أنقاض إلّا اليوم فقط ، بعد نبشها وإخراجها من تحت الأطمار . فسألني المريض : « هل يمكن التنبؤ بيقين بما سيكون عليه سلوك المرء حيال الأفكار التي يتم اكتشافها ؟ فقد يفلح المرء في التغلب على تبكيته ، بينما قد لا يفلح امرؤ ثانٍ في ذلك » . فقلت له : « كلا ، فمن طبيعة الأشياء أن يتم التغلب على الوجدان في أثناء العملية التحليلية ذاتها . فخلافاً لما يحدث بالنسبة إلى بومباي ، التي تُبذل الجهود لصونها والمحافظة عليها ، يتطلع المرء إلى التخلص بأي ثمن من مثل تلك الأفكار المؤلمة » . فأردف يقول : « قلت في نفسي إن التبكيت لا يمكن أن يرى النور إلّا في حال انتهاك المرء للمبادىء الأخلاقية الأكثر اتساماً بالطابع الشخصي ، وليس للقوانين الخارجية » فوافقته على ذلك ، لافتاً نظره إلى أن من لا ينتهك سوى هذه القوانين الخارجية وحدها يعدّ نفسه في كثير من الأحيان بطلاً » . « إن ظاهرة كهذه غير ممكنة بالتالي إلّا إذا وجد من الأصل **انشطار في الشخصية** . وإني لأتساءل عما إذا كنت سأستعيد وحدة شخصيتي . فإن تأتى لي ذلك ، فإني متيقن من أنني سأنجز أشياء باهرة كثيرة ، وربما أكثر مما ينجزه غيري من الناس » . فصارحته باتفاقي التام معه في تصوره عن انشطار الشخصية . بل بوسعه أن يدمج معاً هذين الزوجين : التعارض بين الشخصية الأخلاقية والشر من جهة أولى ، واللاشعور المقابل

(١٥) كان فرويد مولعاً بالعاديات ، وكان ركن بتمامه من مكتبة تشغله منحوتات وتماثيل صغيرة قديمة ، بما فيها بعض التماثيل الفرعونية . « م » .

للشعور من الجهة الثانية . فالشخصية الأخلاقية هي الشعور ؛ أما الشر فينا فهو اللاشعور[١٦] . قال عندئذ : « إنني أذكر ، وإن كنت أعد نفسي رجلاً أخلاقياً ، أنني ارتكبت بكل تأكيد ، في **طفولتي** ، أشياء صادرة عن تلك الذات الأخرى » . فقلت له إنه بقوله هذا قد كشف ، في رأيي ، عن الخاصية الرئيسية للاشعور . أي عن صلته بما هو طفلي . فاللاشعور جزء من شخصيتنا ، انفصل عنها في الطفولة ، ولم يتبع تطورها اللاحق ، وصار من ثم **مكبوتاً** : فاللاشعوري هو الطفلي فينا . وفسائل[١٧] هذا اللاشعور المكبوت هي العناصر التي منها تتغذى الأفكار اللاإرادية التي تشكل مرضه . وقلت لمريضي إن عليه الآن أن يكتشف خاصية أخرى للاشعور . فأجابني : « إنني لا أجد شيئاً آخر ، لكني أتساءل عما إذا كان بالإمكان شفاء اضطرابات مضى عليها مثل هذا الزمن المديد . وماذا يمكن على الأخص عمله في مواجهة فكرتي تلك عن الآخرة التي لا سبيل إلى دحضها بالمنطق ؟ » . فما ماريت في خطورة حالته ، ولا في خطورة تصوراته المَرَضية ، غير أن شبابه نقطة في صالحه ، وكذلك أيضاً استقامة شخصيته ، كما قلت له . وأضفت إلى ذلك عبارة أعربت له فيها عن حسن تقديري لشخصه ، فاغتبط بذلك على نحو منظور .

استهل الجلسة التالية بإخباري عن واقعة جرت له في طفولته : نكما سبق له القول ، كان يخشى منذ أن كان في السابعة من العمر أن يحزر والداه أفكاره ، وقد لازمه هذا الخوف طول حياته . وفي الثانية عشرة أحب بنتاً صغيرة ، هي شقيقة رفيق له (رداً على سؤالي أجاب : « ليس حباً شهوانياً ، فما كنت أرغب في أن أراها عارية ، إذ كانت

(١٦) هذا كله لا يصح إلّا بصورة تقريبية ، ولكنه يكفي لمدخل تمهيدي .

(١٧) الفسائل: بالفرنسية REJETONS وبالألمانية ABKÖMMLING . ومن الممكن ترجمتها أيضاً بالمشتقات . « م » .

صغيرة جداً ») . ولكنها لم تظهر له من الود بالقدر الذي كان يرجو . فخطرت له عندئذ هذه الفكرة : وهي أنها ستكون أكثر حباً له إن نزلت به كارثة ؛ وفرضت فكرة أخرى نفسها عليه ، وهي أن وفاة والده يمكن أن تكون تلك الكارثة . وقد دفع عنه للحال وبقوة هذه الفكرة . وهو يأبى على كل حال أن يسلِّم باحتمال أن تكون بمثابة « أمنية » . فالأمر لا يعدو أن يكون ، في نظره ، « ترابط أفكار »[١٨] . فقلت معترضاً : « إذا لم تكن أمنية ، فلماذا دفعت عنك هذه الفكرة بمثل تلك القوة ؟ » . فأجاب : « فقط بسبب مضمون هذه الفكرة ، وهو احتمال أن يموت أبي » . فلفتّ نظره إلى أنه يعالج هذه المسألة كما لو كانت جريمة قدح في الذات الملكية ، تلك الجريمة التي يُعاقب عليها سواء من قال : « إن الامبراطور حمار » ، وسواء من افصح عن فكرته على نحو أكثر تمويهاً بقوله : « من يقل إن الامبراطور كذا ، فسأريه » . وأضفت بأنه من الممكن بسهولة على كل حال إدراج مضمون فكرته في سياق ينفي عنها طابعها المنفر ؛ مثال ذلك : « إذا مات أبي ، فسأنتحر على قبره » . كان لكلامي هذا وقع الصدمة ، بشكل ظاهر ، على مريضي ؛ غير أنه لم يتخل عن معارضته ، مما اضطرني إلى قطع النقاش بقولي إنها لم تكن المرة الأولى التي تخطر له فيها في هذه الحال فكرة موت أبيه ؛ فلا بد أن تكون ذات أصل أقدم ، وسيتعين علينا يوماً أن نفتش عنه . عندئذ روى لي المريض أن فكرة مشابهة ومضت في ذهنه كالبرق مرة ثانية قبل موت أبيه بستة أشهر . كان عهدئذ قد تدله في حب السيدة التي سبقت الإشارة إليها[١٩] ، ولكن ما كان في مستطاعه أن يفكر بالزواج لأسباب مالية . وكانت الفكرة التي خطرت في ذهنه هي التالية : **لو مات أبي فلربما اغتنيت بما يكفي لأتزوجها** . ودفعاً عنه لهذه الفكرة ذهب

(١٨) ليس العصابيون الوسواسيون هم وحدهم الذين يقنعون بمثل هذه التخفيفات اللفظة .

(١٩) كان ذلك قبل عشر سنوات .

إلى حد التمني بألا يترك له أبوه أي ميراث ، بحيث لا يكون ثمة شيء يعوض عن مثل هذه الخسارة الفادحة بالنسبة إليه . ومرة ثالثة خطرت له مثل تلك الفكرة ، ولكن في صورة مخففة جداً هذه المرة، وذلك عشية وفاة والده : « إنني على وشك أن أفقد أعزّ من لديّ في الوجود » . وللحال بزغت فكرة أخرى معترضة : « كلا ، ثمة شخص آخر سيكون فقدانه أشد إيلاماً بعد لي »[٢٠] . ولقد أدهشه أيما إدهاش أن تراوده أفكار كهذه ، لأنه متيقن تماماً من أن وفاة أبيه ما كان يمكن بحال من الأحوال أن تكون موضع تمنيه ، إذ كانت فقط موضوع خوفه .

بعد هذه الكلمات التي نطق بها باحتداد ، ارتأيت أنه من المفيد أن أعرض له بعض مفاهيم نظرية جديدة . فبحسب هذه المفاهيم ، فإن خوفاً كذاك يناظر **رغبة** قديمة ، هي الآن مكبوتة ؛ ومن ثم فإن احتجاجاته تلك ينبغي أن تحملنا على افتراض وجود نزعات مضادة تماماً . وهذا يتمشى أيضاً مع واقع أن اللاشعور هو النقيض المعاكس للشعور . بدا على مريضنا انفعال شديد ، ولكنه بقي على ريبية شديدة أيضاً ، وأبدى دهشة من أن تكون رغبة كتلك وجدت لديه ، علماً بأن أباه كان أعز شخص عليه في الوجود . وهو لا يشك هنيهة في أنه كان على استعداد للتنازل عن كل سعادة في هذه الحياة لو أمكن له بذلك أن ينقذ حياة أبيه . فاعترضت عليه بالقول إن هذا الحب البالغ الشدة هو بالتحديد شرط كبت الكره . فقد كان سهلاً عليه حيال من لا يحفل بهم من الأشخاص أن يكنّ لهم ، جنباً إلى جنب ، مشاعر من حب معتدل ومن كره معتدل هو الآخر : فلو كان على سبيل المثال موظفاً ، لكان أمكن له أن يصف رئيسه في الوظيفة بأنه إنسان لطيف ، ولكنه في الوقت نفسه خسيس كرجل قانون ولاإنساني كقاضٍ . على هذا المنوال يتكلم بروتوس عن قيصر في مسرحية شكسبير : « كان قيصر يحبني ،

(٢٠) الإشارة هنا واضحة إلى التعارض بين الشخصين الأثيرين : الأب و« السيدة » .

وإني لأبكيه ؛ كان محظوظاً ، وإني لبذلك مغتبط ؛ كان مقداماً ، وإني له معجب ؛ لكنه كان طموحاً فقتلته ! »[٢١] . إن كلمات بروتوس هذه تبدو لنا على كل حال غريبة ، إذ ما كنا لنتصور حباً أعمق من حب بروتوس لقيصر . ولكن لنعد إلى مريضنا ، فقد ذكرت له أنه لو كان بإزاء إنسان وثيق الصلة به ، زوجته على سبيل المثال ، لكان نزع إلى توحيد عواطفه ولكان ضرب صفحاً ، شأنه في ذلك شأن كل كائن من البشر ، عن النقائص التي يمكن أن توري نار كراهيته لها ، ولكان تعامى عن عيوبها . والحال أن هذا الحب البالغ القوة هو بالتحديد الذي لا يسمح للكره (وفي هذه التسمية تضخيم) بأن يبقى شعورياً ، على الرغم من أنه لا بد أن يكون له مصدر . غير أن أصل هذا الكره يبقى معضلة ؛ وأقوال المريض لا تشير إلاَّ إلى الفترة التي تملكه الخوف فيها من أن يحدس والداه بأفكاره . ومن جهة أخرى ، يمكننا أيضاً أن نتساءل لماذا لم يفلح ذلك الحب العارم في إطفاء جذوة الكره ، كما هي الحال في العادة متى ما تواجهت حفزتان متضادتان . لا مفر لنا من التسليم إذن بأن الكره كان يرتبط بسبب يجعله غير قابل للتدمير . وهكذا كانت كراهية الأب بمنجى ، من ناحية أولى ، من التدمير ، كما كان حبه الكبير لهذا الأب نفسه يحول ، من الناحية الأخرى ، دون أن تغدو تلك الكراهية شعورية . ومن ثم لم يبق من ملاذ لهذه الكراهية غير الإقامة في اللاشعور ، ومنه كانت تومض بين الحين والآخر كعارض البرق .

وافق المريض على أن ذلك كله يبدو معقولاً إلى حد كبير ، ولكن هذا لا يعني على الإطلاق أنه كان مقتنعاً به[٢٢] . وقد سألني كيف أمكن

(٢١) **يوليوس قيصر** ، الفصل الثالث ، المشهد الثاني . « م » .

(٢٢) لا نستهدف البتة من مثل هذه المناقشات إلى انتزاع اقتناع المريض . بل الغرض من هذه المناقشات أن نسوق العقد المكبوتة إلى الشعور ، وأن نستثير صراعاً ـ تكون هي موضوعه ـ في مضمار السيرورات النفسية الشعورية ، وأن نسهِّل بزوغ مادة =

لفكرة كتلك أن تكون متناوبة . فقد بزغت مرة وهو في الثانية عشرة من العمر ، ومرة ثانية وهو في العشرين ، ومرة أخرى بعد سنتين من ذلك ، ثم اختفت فما ظهرت قط بعدئذ . وما كان في وسعه أن يسلم بأن العدائية كانت تخمد في تلك الفواصل الزمنية ، علماً بأنه ما كان يستشعر أثناءها بتبكيتات . قلت : « حينما يطرح المرء سؤالاً كهذا ، فهذا معناه أن الجواب جاهز لديه . وحسبنا عندئذ أن نحثّه على المضي في الكلام » . فمضى المريض يقول ، دونما صلة في الظاهر بما تقدم قوله : « كنا أنا وأبي على خير حال من الصداقة ؛ وفيما خلا بعض المجالات النادرة التي من عادة الأب والابن أن يفترقا فيها (إلامَ يَلمح بذلك ؟) ، كانت الصلة بيننا حميمة أكثر مما هي عليه مع أعز صديق لي حالياً . والحال أن السيدة المتقدم ذكرها ، تلك التي آثرتها بالفكر على أبي ، كنت أحبها حباً جماً ، ولكن لم تراودني حيالها قط تلك الرغبات الشهوانية التي كانت تستحوذ علي في طفولتي . وبوجه الإجمال ، كانت ميولي الشهوانية في الطفولة أقوى بكثير منها في طور البلوغ » . هنا نبهته إلى أنه قدم الآن الجواب المنتظر ، وإلى أنه عثر في الوقت نفسه على الخاصية المهمة الثالثة للاشعور . فالمصدر الذي كان يغذي كراهيته لأبيه والذي جعلها غير قابلة للتغيير كان ، كما هو واضح ، من قبيل **الرغبات الجنسية** ؛ ولا بد أن يكون استشعر أن أباه **عائق** أمام إشباع هذه الرغبات . ومثل هذا النزاع بين الشهوانية والحب البنوي نمطي تماماً . وفترات الخمود التي أشار إليها حدثت لديه لأن شهوانيته طرأ عليها ، من جراء تفتحها المبكر ، وهن بعيد المدى . وإنما يوم بزغت لديه من جديد ميول حبية شديدة عاودت تلك العدائية

= جديدة خارج اللاشعور . أما الاقتناع فلا يكتسبه المريض إلَّا بعد أن يعاود بنفسه الشغل بهذه المادة . وما دام الاقتناع يترجح بين بين ، فلا بد ـ لنا من التسليم بأن المادة لم تستنفد بعد ـ .

ظهورها بحكم تشابه الموقف . ولقد حملته على أن يقر بأنني لست أنا من وجهه إلى طريق الطفولة أو إلى طريق الجنسية ، إذ أنه طرقهما من تلقاء نفسه . ومضى المريض يسائلني : « لماذا لم يقرر بينه وبين نفسه بكل بساطة ، في تلك الفترة التي تدله فيها في حب السيدة ، أن تلك العقبة التي يمثلها أبوه في سبيل حبه هذا لا يمكن بحال أن تُوازن مع حبه له؟ » . فأجبت أنه يكاد يكون من المستحيل قتل إنسان **في غيابه**[٢٣] . وما كان له أن يتخذ قراراً كهذا الذي يتكلم عنه إلَّا إذا كانت رغبته المستهجنة في التخلص من أبيه العائق له قد ظهرت لديه لأول مرة يومئذ . والحال أنها كانت رغبة **كبتت منذ عهد بعيد** ، رغبة ما استطاع أن يواجهها إلَّا كما واجهها في طفولته ، ومن ثم بقيت في مأمن من التدمير . هذه الرغبة (في التخلص من الأب العائق له) لا بد أن تكون رأت النور في زمن كان الموقف فيه مختلفاً : فإما أنه كان لا يحب أباه عهدئذ أكثر من الشخص المشتهى من قبله حسياً ، وإما أنه لم يكن قادراً بعد على اتخاذ قرار قاطع ، أي في طفولته الأولى ، قبل أن يبلغ السادسة من العمر وقبل ذلك الزمن الذي صارت فيه ذكرياته تؤلف منظومة متصلة . ومنذئذ لا بد أن تكون الحال قد بقيت على ما هي عليه . ـ وعند هذا الحد أوقفت بصورة مؤقتة تفسيري .

في الجلسة التالية ، وهي السابعة ، عاد المريض يطرق الموضوع نفسه . فهو لا يستطيع أن يصدق أنه تمنى شيئاً من ذلك القبيل لأبيه . وإنه ليذكر قصة لسودرمان[٢٤] Sudermann تركت فيه انطباعاً عميقاً وكانت تحكي عن فتاة تمنت الموت لشقيقتها المريضة كيما تتمكن من الاقتران من زوج هذه الأخت . وقد انتحرت فيما بعد

(٢٣) باللاتينية في النص : IN ABSENTIA . « م » .

(٢٤) هرمان سودرمان : كاتب ألماني (١٨٥٧ ـ ١٩٢٨) ، له مسرحيات وروايات ذات نزعة طبيعية . « م » .

لأنها ما كانت تستحق أن تحيا بعد مثل تلك الخساسة . وقال إنه يفهم ذلك تماماً ، وإنه يعتقد أنه من العدل أن تقوده أفكاره إلى حتفه ، فهو لا يستأهل مصيراً أفضل[٢٥] . فلفت نظره إلى أن من الوقائع المعروفة لدينا جيداً أن العذابات توفر للمرضى نوعاً من الإشباع ، ومن ثم فإنهم جميعهم يحاربون جزئياً شفاءهم . وحثثته على ألا يغيب عن باله أن معالجة كالتي نحن بصددها تقترن على الدوام **بمقاومات** ؛ وهذا ما لن أتوقف عن تذكيره به .

طفق المريض عندئذ يكلمني عن فعل إجرامي ، فعل ما تعرَّف نفسه فيه ، ولكنه يذكر عن علم أكيد أنه ارتكبه . واستشهد بنيتشه : « فعلت ذلك » ، قالت ذاكرتي : « لا يمكن أن أكون فعلت ذلك » ، قالت عزة نفسي التي لا تلين لها قناة. «وفي نهاية المطاف، سلمت ذاكرتي بالهزيمة »[٢٦] .

« والحال أن ذاكرتي لم تسلم بالهزيمة بصدد هذه النقطة » . قلت : « ذلك على وجه التحديد لأنك تستمد من تكبيتاتك نوعاً من الإشباع » . فاستطرد يقول : « كثيراً ما دار بيني وبين أخي الأصغر (أنا الآن أحبه كثيراً على كل حال ، ولكني أتحمل في سبيله هموماً كبيرة ؛ فهو يريد أن يعقد زواجاً هو في رأيي حماقة ؛ بل كنت انتويت أن أذهب لأراه ولأقتل تلك المرأة حتى لا يتمكن من الاقتران منها) ، عراك ونحن أطفال . لكن فيما عدا ذلك كنا نحب بعضنا بعضاً كثيراً ، وما كان واحدنا يفترق عن الآخر . على أنني كنت أغار منه غيرة واضحة ، لأنه كان أقوى مني وأجمل مني ، وبالتالي أحظى مني بالإيثار » . قلت :

(٢٥) يتناقض هذا الإحساس بالذنب تناقضاً صارخاً مع إنكاره السابق لواقع أن يكون تمنى الموت لأبيه . وهذا نمط شائع من الاستجابة لفكرة مكبوتة حينما تقع في متناول إدراك الشعور : فالإنكار يعقبه للحال إثبات غير مباشر .

(٢٦) **فيما وراء الخير والشر** ، ف ٤ ، الفقرة ٦٨.

« لقد سبق لك بالفعل أن حكيت لي عن مشهد غيرة يتصل بالآنسة لينا » . قال : « بعد حادثة من هذا القبيل (كنت بالتأكيد دون الثامنة من العمر ، لأنني ما كنت أذهب بعد إلى المدرسة التي ما دخلتها إلاّ في سنتي الثامنة) فعلت ما يلي : كانت لدينا بندقيتان من بنادق الأطفال ، من النوع العادي . فحشوت بندقيتي بسيخها وطلبت إليه أن ينظر في ماسورتها ، ليرى إن كان فيها شيء ، فلما راح ينظر فيها ضغطت على الزناد . جاءت الإصابة في جبهته ، ولكنه لم يتأذ ، لكن كان في نيتي أن أؤذيه أذى شديداً . ثم وجدتني بعد ذلك وقد خرجت عن طوري ، فارتميت أرضاً ، ورحت أتساءل كيف أمكن لي أن أفعل شيئاً كهذا . لكنني فعلته » . انتهزت السانحة لأحامي عن رأيي : « ما دمت قد احتفظت بذكرى فعل غريب عنك إلى هذا الحد ، فلست مستطيعاً أن تنفي احتمال حدوث شيء مشابه ، في زمن أبكر ، حيال أبيك ، بدون أن تكون احتفظت بذكراه » . فقال لي عندئذ انه يذكر أنه راودته حفزات انتقامية أيضاً حيال السيدة التي يكنّ لها مع ذلك حباً يصل إلى حدود العبادة والتي رسم لشخصيتها صورة تنطق بحماسته لها. قال : « لعلها لا تحب في سهولة ، لكنها تحتفظ بتمام حبها لمن ستكون له يوماً . إنها لا تحبني ، أنا. والحال أنني ما إن أدركت ذلك حتى طفقت أتخيل أنني سأصيب يوماً ثراء عظيماً ، وسأتزوج من امرأة أخرى ، وسأزورها بصحبة زوجتي لأجرح مشاعرها . ولما وصلت إلى هذه النقطة ، نضب معين خيالي ، لأنني لم أجد بداً من الاعتراف بيني وبين نفسي بأن المرأة الأخرى ، زوجتي ، لا تعني لي شيئاً على الإطلاق . وعندئذ اختلطت أفكاري ، وأدركت في النهاية أن زوجتي لا بد أن تموت . وهكذا تبينت مرة أخرى في تخييلي ، كما في محاولة الاعتداء على أخي ، تلك السمة التي تثير تقززي إلى أقصى حد، أعني **الجبن**»[٢٧].

(٢٧) ستتوضح هذه النقطة فيما بعد .

ولفتّ نظره ، في تتمة المحادثة ، إلى أنه يتحتم عليه ألا يعدّ نفسه مسؤولاً عن هذه السمات في طبعه ؛ فجميع هذه الحفزات المستهجنة هي من أصل طفلي ، ومناظرة لفسائل باقية في لاشعوره من شخصيته الطفلية ، والطفل لا يمكن أن يُحمَّل ، كما يعلم ولا بد ، مسؤولية أخلاقية . والإنسان المسؤول أخلاقياً لا يتكون بدءاً من جملة استعداداته الطفلية إلّا عبر سيرورة نمو وتطور[٢٨] . لكن مريضي ظل يشك في أن يكون هذا هو أصل جميع حفزاته الشريرة . فوعدته بإثبات ذلك له في مجرى العلاج .

قال المريض بعد ذلك إن مرضه تفاقم تفاقماً خطيراً بعد وفاة والده . فأكدت له أنه محق في ما يقول ، بمعنى أنني أسلم بأن حزنه على موت أبيه هو المصدر الرئيسي لمرضه . فقد وجد هذا الحزن في المريض تعبيره المرضي، إن جاز القول . وعلى حين أن الحزن الذي يعقب وفاة إنسان عزيز يستكمل مساره في العادة في سنة أو سنتين ، فإن الحداد المرضي كحداده يدوم إلى غير ما نهاية .

هنا ينتهي ذلك الجزء من تاريخ المرض القابل لأن يُعرض بالتفصيل وبمنطق متتابع . ويطابق هذا العرض إجمالاً مسار العلاج بكليته ، هذا العلاج الذي امتد أحد عشر شهراً ونيفاً .

(هـ)
بعض الوساوس وتفسيرها

إن الوساوس تبدو ، كما هو معروف ، إما عديمة الحافز ، وإما

(٢٨) لم أورد هذه الحجج إلّا لأثبت لنفسي مرة أخرى عدم نجعها . ولست مستطيعاً أن أتصور كيف يؤكد معالجون نفسيون آخرون أنهم يتصدون بنجاح للأعصبة بمثل هذه الأسئلة .

لامعقولة ، مثلها مثل فحوى أحلامنا الليلية . والمهمة الأولى التي تلقي بها على عاتقنا هي أن نوجد لها معنى ومكاناً في نفسية الفرد ، كيما نجعلها مفهومة ، بل معقولة . وحسناً نفعل إذا لم ندع ، في محاولتنا ترجمة هذه الوساوس ، استغلاقها الظاهري على الفهم يشوش علينا مهمتنا ؛ فأكثر الوساوس إمعاناً في الإغراب واللامعقولية تبقى قابلة للحل والتفسير إذا تعمقنا فيها كما ينبغي . وإننا لنهتدي إلى الحل المنشود متى ما وضعنا الوساوس على محك خبرات حياة المريض ، أي إذا تقصينا متى كان الظهور الأول لوسواس من الوساوس ، وفي أي ظروف وشروط يعاود ظهوره في العادة. وعلى هذا، فمن الأيسر نسبياً الاهتداء إلى الحل متى ما كان المطلوب العثور على معنى وساوس لم يقيض لها ، كما تغلب الحال ، أن تظفر بوجود دائم . وإذا ما اتضحت لنا العلاقة بين الوسواس وبين خبرات حياة المريض ، أمكن لنا في سهولة أن نقتنع بأن جميع المعضلات الملغزة والمثيرة للاهتمام المرتبطة بهذا التكوين المرضي تغدو ميسوراً فهمها : دلالة الوسواس ، وإوالية تكوينه ، والقوى الغريزية النفسية المناظرة له والتي عنها كان صدوره .

أبدأ بمثال بالغ الشفافية : **الدافع القهري إلى الانتحار** ، وهو كثير التواتر لدى مريضنا ويكاد تحليله أن يتم من تلقاء نفسه . فغياب صديقته ، التي سافرت لتعتني بجدتها بعد أن اشتد عليها المرض ، أضاع عليه ثلاثة أسابيع من الدراسة . قال لي : « خطرت لي ، وأنا غارق في المذاكرة على نص عويص للغاية ، الفكرة التالية : قد يكون معقولاً بعد أن تتلقى أمراً بأداء امتحانك في أقرب دورة . لكن ماذا أنت فاعل لو صدر إليك من ذات نفسك أمر بأن تقطع عنقك بالموس ؟ وفطنت حالاً إلى أن هذا الأمر قد صدر إلي فعلاً ، فهرعت إلى الخزانة لأتناول الموس ، لكن ما عتمت أن دارت لي هذه الفكرة : كلا ، ليس

الأمر بهـذه البساطة ؛ بل اذهب واقتل[٢٩] المرأة العجوز . ومن رعبي سقطت أرضاً » .

إن العلاقة التي تربط هذا الوسواس بخبرات حياتـه كامنـة في بداية القصة التي سردها . فقد كانت السيدة غائبة ، فيما كان هو منكباً بجماع نفسه على تحضير امتحانه كيما يقرِّب ما أمكن موعد قرانهما . واستبد به ، وهو غارق في المذاكرة ، الحنين إلى الغائبة ، وطفق يفكر بأسباب هذا الغياب . وعندئذ حدث في نفسه ما كان يمكن أن يكون لدى شخص سوي مجرد بادرة حنق على جدة السيدة ، وكان من الممكن في هذه الحال أن تجد بادرة الحنق هذه ترجمتها كما يلي : « لماذا تحتم أن تمرض العجوز على وجه التحديد في الوقت الذي اشتد فيـه توقي إلى رؤية صديقتي ؟ » . وينبغي أن نفترض أن شيئاً من هذا القبيل ، ولكنه أكثر شدة بكثير ، قد حدث لدى مريضنـا ؛ فقد اجتـاحته سـورة حنق لاشعورية كان يمكن ترجمتها ، مع ما اقترن بها من حنين وشوق ، إلى عبارة كهذه : « أوه ! بودي لو أذهب وأقتل تلك العجوز التي حرمتني من صديقتي » . وكان سيلي هذه العبارة أمر يأمره : « اقتل نفسك عقاباً لك على مثل هذه الرغبات الهمجية » . وهذه السيرورة تبـدت برمتهـا في شعور مريضنا الموسوس ، مقرونة بأعنف الوجدانات ، وإنما **بترتيب معكوس** : الأمر بالمعاقبة أولاً ، ثم يأتي في النهاية ذكر الرغبة الآثمة . ولا أعتقـد أن محاولة التفسيـر هذه يمكن أن تبـدو متعسفة ، أو أنهـا تنطوي على قدر كبير من عناصر افتراضية مشكوك فيها.

ومن حفزاته القهـرية الأخـرى حفزة لم يكن تفسيـرها ميسـوراً بالقدر نفسه ، نظراً إلى أن روابطها بحياة المريض الوجـدانية أفلحت في الاستتار وراء تداعٍ من التداعيات السطحية ، وهـو أمر ينفـر منه

(٢٩) أضيف من عندي : أولاً .

أشد النفور فكرنا الشعوري . كانت حفزة قهرية إلى انتحار لامباشر ، إن جاز القول ، وقد دامت فترة من الزمن . فذات يوم ، وفي أثناء إجازة اصطيافية له ، خطرت له فكرة مؤداها أنه بدين[٣٠] أكثر مما ينبغي وأنه يتحتم عليه أن **ينحف** . فطفق منذئذ ينهض عن المائدة قبل التحلية ، ويندفع في الطريق في قيظ شهر آب بلا قبعة ، ويتسلق الجبـال جريـاً ليتوقف من ثم وقد بلله العرق . وبزغت فكرة الانتحار ذات مرة بلا تنكُّر خلف هوس النحافة هذا ؛ ففيما كان يقف ذات يوم على جرف شـديد الانحدار تلقى من داخل نفسـه أمراً بـأن يقفز إلى أسفـل ، مما كـان سيكون فيه موته المحقق . ولم يهتد المريض إلى فك لغز هذا الحافـز القهري البعيد عن العقل إلَّا حين خطر بباله ذات يوم أن صديقته كانت تنزل في ذلك الوقت في المصيف نفسه ، وإنما بصحبة ابن عم انكليزي لها كان يغازلها وكان مريضنا يغار منه غيرة شديدة . كان ابن العم هذا يـدعى ريشارد ، وكـان الجميع يلقبـونـه ديـك Dick ، بحسب العـادة الدارجة في انكلترا . وإنما « ديك » هذا هو من كان يريد أن يقتل . وفي الواقع كان حنقه وغيرته أشد بكثير مما كان يقر به بينه وبين نفسـه ، ولهذا فرض على نفسه ، عقابـاً لذاته ، كـل عذاب التنحيف وإنقـاص الوزن . ومهما بدت هذه الحفزة القهرية مختلفة عن سابقتها ، أي الأمر المباشر بالأنتحار ، فإن سمة مهمـة تجمع بينهمـا : نشوءهمـا كليهما كاستجابة لحنق بالغ العنف لا يقع في متناول الشعـور ، وينصب على الشخص الذي يعكر صفو الحب[٣١] .

(٣٠) بدين بالألمانية DICK . ومعـرفة ذلك ضـرورية لفهم التـداعي الكامن وراء الحفـزة القهرية الانتحارية كما سيتبين لنا من النص . « م » .

(٣١) إن استخدام الأسماء والكلمات لابتداع روابط بين الخواطر اللاشعورية (من حفزات وتخييلات) من جهة أولى ، وبين الأعـراض من الجهة الثـانية ، يكـون في العصاب الوسواسي أقل تواتراً وأقل غلظة مما في الهستيريا . ومع ذلك ، وفيما يتصـل باسم ريتشارد ، أذكر هنا مثالاً آخر من حالة توليت تحليلها منذ زمن . فالمريض الأخير راح =

بيد أن وساوس أخرى تكشف لنا ، وإن تكن هي الأخرى ذات صلة بصديقة المريض ، عن إواليات مختلفة وأصل غريزي مختلف . ففي أثناء إقامة تلك السيدة في الريف اختلق لنفسه ، علاوة على هوس النحافة ، سلسلة بكاملها من حفزات قهرية تتصل بها ، ولو بصفة جزئية ، اتصالاً مباشراً . ففيما كان ذات يوم يتنزه معها في القارب ، هبت ريح قوية ، فاضطر إلى أن يرغمها على لبس برنسه ، لأنه كان تشكل في ذهنه الأمر التالي : **لا ينبغي أن يقع لها شيء**(٣٢) . كان ذلك من قبيل **الحفزة القهرية إلى الحماية** ، وكان من أمثلته الأخرى : فيما كان يوماً بصحبتها في أثناء عاصفة رعدية تفتق ذهنه عن حفزة قهرية إلى أن يعد إلى أربعين أو إلى خمسين بين البرقة والرعدة ، بدون أن يدري لذلك سبباً . وفي يوم رحيل سيدة قلبه ، ارتطمت قدم مريضنا بحجر في الطريق . فلم يجد بداً من أن يرفعه من الطريق ، إذ فكر بأن عربة صديقته ستمر عما قليل بهذا الموضع ، وقد يقع لها حادث من جراء هذا الحجر . لكنه ما عتم بعد بضع لحظات أن قال لنفسه إن ذلك سخف ، ولم يجد بداً من أن يعود على عقبيه ليعيد الحجر إلى مكانه في وسط الطريق . وبعد رحيل سيدة قلبه ، تسلط عليه **حافز قهري إلى الفهم** ، إلى حد صار لا يطيقه حتى ذووه . فقد راح يبذل قصاراه ليفهم بدقة معنى كل مقطع مما يقال له ، وكأنما كنز ثمين سيضيع عليه إن فاته هذا المعنى . وكان يسأل باطراد : « ما هذا الذي نطقت به ؟ » . وحين كانت العبارة تردد على مسامعه ، كان يدعي أنه سمع في المرة الأولى شيئاً مختلفاً ، ويقيم على غير رضى .

يضرب أخماساً بأسداس على منوال الموسوسين - بعد مشاحنة وقعت بينه وبين أخيه - ليهتدي إلى وسيلة يتخلص بها من ثروته ، معلناً أنه ما عاد يرغب في أن تكون له أية صلة بالمال ، الخ . والحال أن أخاه كان يدعى ريشار (ريشار RICHARD بالفرنسية تعني أيضاً الرجل العظيم الثراء . « م »)

(٣٢) مما يمكن أن يقع اللوم فيه عليه : هذا ما ينبغي أن نضيفه .

كانت جميع تظاهرات مرضه هذه ترتبط بحادث معين كان يتحكم عهدئذ بعلاقته بالسيدة . وقد وقع هذا الحادث في فيينا ، قبل سفره إلى الريف ، فيما كان يستأذنها بالرحيل . فلقد فسر عبارة تلفظت بها على أنها محاولة للتبرؤ منه أمام الحاضرين من الأصحاب ، فتألم لذلك أشد الألم . ثم سنحت لهما الفرصة بعد ذلك في الريف ليتفاهما حول هذه المسألة ، فاستطاعت أن تثبت له أن تلك العبارة ، التي أساء هو تأويلها إلى أبعد حد ، إنما كانت ترمي إلى حمايته من أن يصير موضع سخرية . وشعر بعد هذه المكاشفة أنه في غاية السعادة من جديد . وأوضح إشارة إلى هذا الحادث متضمَّنة في حافزه القهري إلى الفهم ، ذلك الحافز الذي انبنى وكأنما قال في نفسه : « إذا كنت تريد ، بعد هذه التجربة ، أن تتفادى عذاباً لا داعي له ، فعليك من الآن فصاعداً ألا تسيء أبداً فهم معنى الكلمات التي تطرق مسامعك » . غير أن قراره هذا كان ينطوي ، علاوة على تعميم للحادث المشار إليه ، على عملية نقل ، ربما بسبب غياب السيدة المعبودة ، من شخص هذه المرأة التي تنزل من نفسه أعلى منزلة إلى جميع الأشخاص الأدنى منها . ومن جهة أخرى ، ما كان لهذا الوسواس أن ينشأ فقط عن الرضى الذي استشعره بعد ما شرحت له السيدة واقع الأمر . فلا بد أنه يعبر عن شيء آخر بعد ، لأن مريضنا كان ينتهي دوماً إلى الوقوع في شك مكرب بخصوص صحة ما يكرر على مسامعه .

إن الحفزات القهرية الأخرى التي ابتعثها في مريضنا رحيل صديقته هي التي تضعنا على الطريق إلى ذلك العنصر المنشود الآخر . **فالحفزة القهرية إلى حماية** صديقته لا يمكن أن تعني شيئاً آخر سوى استجابة - ندم ، تكفير - لنازع معاكس ، وبالتالي عدائي ، كان موجهاً ضدها قبل إيضاحها له حقيقة الأمر . **والحفزة القهرية إلى العد** في أثناء العاصفة يمكن تأويلها ، بالاستعانة بالمادة التي أمدنا بها المريض ، على أنها إجراء دفاعي ضد هواجس خطر الموت . ونحن

نعلم من تحليل الوساوس التي تناولناها في أول الأمر أن النوازع العدائية عند مريضنا عنيفة للغاية ، أشبه بسورات حنق جنونية ؛ ونحن نجد من جهة أخرى أن هذا الحنق استمر يسهم في تكوين وساوسه حتى بعد تصالحه مع السيدة . أما **حفزته القهرية إلى الشك** في ما يسمعه فتعبر عن شكه المتواصل في أن يكون أحسن فهم صديقته حين شرحت له حقيقة الأمر . ومن ثم فهو يشك في أن يكون في الإمكان اعتبار كلماتها دليلاً على حبها له . والشك ، في **حافزه القهري إلى الفهم** ، يعني أنه يشك في حب صديقته. فلدى هذا العاشق يحتدم الصراع بين الحب والكره اللذين يساورانه إزاء الشخص عينه ؛ ويفصح هذا الصراع عن نفسه في صورة تشخيصية من خلال فعل قهري بليغ الدلالة في رمزيته : فهو يرفع الحجر من طريق صديقته ، ثم يمحو علامة الحب هذه بإعادته الحجر إلى مكانه كيما ترتطم به العربة وتتأذى صديقته . وسنجانب الصواب فيما لو حسبنا أن الجزء الثاني من هذا الفعل القهري عند مريضنا قد أوحى به إليه حسه النقدي في صراعه ضد أفعاله المَرَضية ؛ وهذه هي بالتحديد الدلالة التي يود المريض أن يعطيه إياها . والحق أن هذا الجزء من الفعل يشف ، بالنظر إلى أن المريض أداه قهرياً ، عن انتمائه هو الآخر إلى النشاط المَرَضي ، وإن كان متحدداً بدافع مناقض لذاك الذي كان وراء الجزء الأول من الفعل القهري .

إن أفعالاً قهرية كهذه ، تؤدى على مرحلتين وتكون فيها المرحلة الثانية بمثابة نفي للأولى ، هي من الظاهرات المميزة للعصاب الوسواسي . ومن نافل القول أن الفكر الشعوري للمريض يخطىء في فهم معنى هذه الحفزات القهرية ويعزو إليها دوافع ثانوية ، أي يعمد إلى **تعقيلها**[٣٣] . أما دلالتها الحقيقية فتكمن في كونها تعبر عن الصراع

(٣٣) انظر إ.جونز: **التعقيل في الحياة اليومية**، في **مجلة علم النفس اللاسوي**، ١٩٠٨

بين نزعتين متعاكستين ومتساويتين في الشدة تقريباً ، وهذا التعارض هو على الدوام، بحسب خبرتي ، تعارض الحب والكره . إن هذه الأفعال القهرية ذات المرحلتين تتسم بأهمية نظرية خاصة ، لأنها تتيح لنا أن نتعرف إلى نمط جديد في تشكيل الأعراض . فبدلاً من الوصول ، كما الحال في الهستيريا اطراداً ، إلى تسوية يمكن معها للضدين كليهما أن يعبرا عن نفسيهما (إصابة عصفورين بحجر واحد كما يقال)[٣٤] ، يتاح للنزعتين المتعاكستين هنا أن تترجما عن نفسيهما الواحدة تلو الأخرى منفردة ، بدون أن يعني ذلك بطبيعة الحال الامتناع عن كل محاولة لإقامة رابطة منطقية بين الاثنتين ، رابطة تكون مجافية في كثير من الأحيان لكل منطق[٣٥] .

ان الصراع بين الحب والكره قد تجلى لدى مريضنا في علائم أخرى أيضاً . فيوم عاوده ورعه ابتدع صلوات راحت تطول شيئاً فشيئاً حتى صارت تستغرق ساعة ونصف ساعة ، إذ كانت تندس بين عباراته الورعة ، على العكس من بلعام[٣٥] ، خواطر تقلبها إلى نقيضها . فقد

(٣٤) انظر فرويد: **التخييلات الهستيرية وعلاقتها بالجنسية الثنائية**، الأعمال الكاملة، م ٧ .

(٣٥) روى لي مرة مصاب اخر بالعصاب الوسواسي إنه فيما كان يتنزه في حديقة شونبرون (حي في فيينا يقع فيه قصر آل هابسبورغ . « م ») ارتطمت قدمه بغصن شجرة . فرمى به بين الشجيرات التي تحف بالطريق . وفي طريق أوبته انتابته مخاوف من أن يتسبب الغصن ، في وضعه الجديد ، بحادث لمتنزه آخر قد يمر بالطريق نفسه . فقفز من الحافلة الكهربائية التي كانت آيبة به ، وهرع إلى الحديقة ، وبحث عن ذلك الموضع، وأعاد الغصن إلى وضعه الأول . وهذا مع أن أي شخص آخر غير المريض كان سيفطن بكل تأكيد إلى أن الغصن أشد خطورة في وضعه الأول على الأرض منه بين الشجيرات . والفعل الثاني ، أي الفعل الذي جعله يضع الغصن من جديد في وسط الطريق والذي نفذه بصورة قهرية ، قد تجمَّل ، في مواجهة الفكر الشعوري ، بدوافع غيرية تنتمي إلى الفعل الأول ، أي الفعل الذي حمله على إلقاء الغصن بين الشجيرات .

(٣٥) بلعام بن بعور : شخصية من التوراة حظر عليه اللّه أن يلعن شعبه لأنه مبارك . أراده =

كان يضرع ، مثلاً ، قائلاً : « يحفظه اللّه » ، فإذا بالشرير يحمله على استباق دعائه بكلمة « لا »[٣٦] . وقد خطر له يوماً أن يتلو مسبات ولعنات ، على أمل أن يندس بينها هذه المرة أيضاً ما ينقضها . وبذلك تكون نيته الأصلية ، التي كبتتها الصلاة ، قد خرجت إلى العلن . وقد بلغ الضيق بمريضنا أنه هجر الصلوات واستبدلها بصيغ مقتضبة مؤلفة من حروف ومقاطع هي التي كان يستهل بها شتى صلواته . وكان ينطق بهذه الصيغ بمنتهى السرعة حتى لا يمكن لشيء أن يندس بينها .

روى لي المريض يوماً حلماً يمثل الصراع نفسه بعد تحويله إلى الطبيب : فقد رأى في منامه أن أمي ماتت . فأراد أن يأتي ليقدم لي تعازيه ، لكنه خشي أن تنتابه ، في هذه المناسبة ، سورة **الضحك الوقح** ، على نحو ما حدث معه تكراراً في مناسبات مماثلة . ومن ثم آثر أن يترك لي بطاقته وقد كتب عليها حرفي التعزية : **ت . ع** ، لكن هذين الحرفين انقلبا ، فيما كان يخطهما ، إلى حرفي تهنئة : **ت . هـ**[٣٧] .

كانت الطبيعة المتناقضة لمشاعره إزاء تلك السيدة أوضح من أن تفلت بتمامها من الإدراك الشعوري . بيد أننا نستطيع أن نستنتج من الطابع القهري لهذه المشاعر أنه كان من المستحيل على مريضنا أن يتبين مدى شدة حفزاته السلبية ضدها . فقد كانت تلك السيدة ردت أول طلب للزواج تقدم به منها مريضنا قبل عشر سنوات . ومنذئذ تناوبت فترات كان يعتقد أثناءها أنه يحبها حباً مضطرماً ، وفترات كان يفقد فيها ، حتى في شعوره ، اكتراثه بها . وكان كلما توجب عليه في

بالاق بن صفور ، ملك المؤابيين ، على أن يلعن شعبه ، ففعل العكس وباركه قائلاً : « كيف ألعن من لم يلعنه اللّه ، وكيف أشتم من لم يشتمه الرب ؟ » « م » .

(٣٦) قارن مع الإواليات المشابهة للخواطر التدنيسية اللاإرادية لدى بعض المؤمنين .

(٣٧) يفسر لنا هذا الحلم تلك الضحكة القهرية ، الكثيرة التواتر والشديدة الإلغاز في الظاهر ، التي تنتاب بعض الأشخاص في المآتم .

أثناء العلاج أن يخطو خطوة تقرّبه من هدف رغباته ، تظاهرت لديه المقاومة أولاً في صورة شعور بأنه لا يحبها ذلك الحب الجم في الواقع ، وإن كان هذا الشعور لا يعتم أن يتلاشى سريعاً . وفيما كان يقف ذات يوم قرب فراشها ، وقد طرحتها فيه شدة المرض ، خطرت له ، وهو أشد ما يكون انشغال بال عليها ، هذه الفكرة : لو أنها تبقى راقدة هكذا أبداً ! وقد أوّل هذه الأمنية ببراعة بقوله إنه رغب في أن تبقى مريضة أبداً ، لا لشيء إلا لكي يتخلص من قلقه الذي لا يطاق من احتمال إصابتها بانتكاسة[٣٨] ! وكان في بعض الأحيان يشغل مخيلته بأحلام يقظة أقر هو نفسه بأنها كانت عبارة عن « تخييلات ثأرية » أورثته خجلاً . فقد استغرق مرة ، وقد حسب أنها تعلق أهمية كبيرة على المركز الاجتماعي لأحد خطاب يدها ، في هذا الحلم من أحلام اليقظة : لقد تزوجت من موظف عالي المقام ، ودخل هو نفسه الى السلك الوظيفي عينه وتقدم فيه بخطى أسرع بكثير ، بحيث أن ذلك الموظف صار مرؤوسه . وذات يوم ارتكب هذا الرجل فعلة من فعال عدم الأمانة ، فارتمت زوجته عند قدمي مريضنا وتضرعت اليه أن ينقذ زوجها . فوعدها بذلك ، لكنه كاشفها بأنه ما دخل الوظيفة إلا حباً بها وتوقعاً لاحتمال من هذا القبيل . أما وقد أنقذ زوجها . الآن ، فقد أتم رسالته ، ولسوف يقدم استقالته .

وفي تخييلات أخرى ، كان يسدي اليها فيها مثلاً أجلّ الخدمات بدون أن تعلم أنه هو صانعها ، ما كان يعاين سوى حبه ولا يفطن الى أن أريحيته هذه في أصلها وفي الهدف الذي ترمي اليه ، على منوال أريحية الكونت دي مونت كريستو[٣٩] لدى ديماس ، إنما تستجيب لظمأ

(٣٨) كان ثمة دافع آخر يسهم أيضاً في تشكيل هذا الوسواس : رغبته في أن يراها بلا دفاع أمام رغائبه .

(٣٩) بطل رواية الكسندر ديماس الأب (١٨٤٦) التي تحمل كعنوان الاسم نفسه . والكونت دي مونت كريستو مثال نمطي لـ « أمير الانتقام » . « م » .

الى الثأر مطلوب كبته . بيد أنه أقر مع ذلك بأنـه تستبد بـه في بعض الأحيان حفزات سافرة الى إيذاء السيدة المحبوبة . بيد أن حفزاته هذه ما كانت تظهر في الأغلب إلا في غياب هذه السيدة ، وتختفي من ثم في حضورها .

(و)

العلة الظرفية للمرض

روى مريضنا ذات يوم عرضاً حادثة تسنى لي ان أتعرف فيهـا فوراً العلة الظرفية لمرضه ، أو على الأقل العلة الظرفية الحديثة العهد لنـوبة المـرض الأخيرة التي تفجـرت قبل ستـة أشهر والتي لا تـزال مستمرة الى اليوم . كان المريض نفسه يجهل كل الجهل أنـه حكى لي عن حادثة مهمة . وما كان يستطيع أن يتذكر أنه علق أهمية ما على هذه الحادثة وإن لم يكن قد نسيهـا قط . وهذا الوضع لديه يتطلب إيضاحاً نظرياً .

القاعدة في الهستيريا أن تُنتسى العلل الظرفية الحديثة للمرض ، مثلها مثل الخبرات الطفلية التي بمعونتها تقلب الخبرات الحديثة طاقتها الوجـدانية الى أعـراض . ومع ذلك ، وحيثمـا يكن النسيـان الكـامـل مستحيلاً ، تتآكل النساية الرضات الحديثة ، أو تجردها على الأقل من أهم عناصرها المكوِّنة . وإننا لنرى في نساية كهذه الدليل على حدوث كبت . والأمر بالإجمـال مختلف في العصاب الوسـواسي . فالمصـادر الطفلية للعصاب يمكن أن تكون طالتها النساية ، وإن بصورة غير كاملة في كثير من الأحيان ؛ وبالمقابل فإن العلل الظرفيـة الحديثـة للعصاب تبقى محفوظة في الذاكرة . ويكون الكبت ، في هذه الحالات ، قد لجـأ إلى إوالية مختلفة ، هي في الواقع أكثر بسـاطة : فبدلاً من أن يـدفع

بالرضة الى لجة النسيان ، يجـردها من شحنتهـا الوجدانيـة بحيث لا يبقى منها في الذاكرة الشعورية سوى مضمون فكـروي حيادي ، وفي الظاهر عديم الأهميـة . والفارق بين هـذين الشكلين من أشكال الكبت يكمن في السيـرورة النفسيـة الخبيئـة خلف الظاهـرات والتي فـي مستطاعنا إعادة بنائها . أما نتائج هاتين السيرورتين فتكـاد أن تكون واحدة على الدوام ، بالنـظر إلى أن المريض لا تحضـره إلا فيما نـدر ذكرى المضمون الفكروي الحيادي ، وبالنظر الى أن هذا المضمون لا يلعب أي دور في نشـاطه النفسي الشعوري . وكيمـا نميز بين هـذين النوعين من الكبت لا يسعنا في الوقت الراهن أن نعتمد إلا على ما يقوله لنا المريض نفسه : فهو يشعر في إحدى الحالتين[٤٠] بأنـه كان دومـاً على معرفة ببعض الأحداث ، على حين أنه في الحالة الثانية قد نسيهـا منذ زمن بعيد[٤١] .

لذا كثيراً ما نرى المرضى بالعصاب الوسواسي ، الذين يكابدون من تبكيتات والذين ربطوا وجداناتهم بذرائع كاذبة ، يكاشفون الطبيب في الوقت نفسه بالأسباب الحقيقية لتبكيتاتهم ، حتى بدون أن يشتبهوا في أن هذه التبكيتات قد انفصلت عن أسبابها تلك . بل إنهم يذكرون له بـدهشة ، أو حتى بتبـاهٍ ، في معـرض روايتهم للأحـداث التي كـانت الأسباب الحقيقية لتبكيتاتهم : « هذا ما لا يمس فيّ وتراً » . وذلك مـا

(٤٠) أي حالة العصاب الوسواسي ، والثانية هي الهستيريا . « م » .

(٤١) لا بد لنا من التسليم بأن المعرفة لدى المصابين بالعصاب الوسواسي على نوعين ، وأنه يستوي أن نقول « إن المريض « يعرف » رضاته أو أن ندعي أنه لا « يعرفها » . فهو يعرفها ، بمعنى أنه ما نسيها ، لكنه لا يعرفها ، إذ أنه لا يدرك أهميتها ودلالتها . وكذلك الحال في أغلب الأحيان في الحياة العادية . فالخدم ، الذين كانوا يقومون على خدمة شوبنهاور في النزل الذي كان يتردد عليه ، كانوا «يعرفونه» بمعنى ما ، في زمن لم يكن فيه قد اشتهر بعد لا في فرانكفورت ولا في غيرها ، ولكنهم ما كانوا « يعرفونه » بالمعنى الذي نقصده اليوم حينما نتحدث عن « معرفة » شوبنهاور » .

حدث في أول حالة عصاب وسواسي أتاحت لي ، قبل عدة سنوات ، أن أفهم هذا المرض . كان المريض المذكور موظفاً ، شديد الوسوسة ، وهو عينه الذي تكلمت عن قهره المتصل بغصن الشجرة في حديقة شونبرون ، وقد استرعى انتباهي من حيث أنه كان يسدد على الدوام أتعابي بأوراق مالية نظيفة وجديدة (لم يكن ثمة وجود بعد عصرئذ في النمسا لعملة فضية) . وذات مرة قلت له إن المرء يستطيع أن يتعرف الموظف من الأوراق النقدية الجديدة التي يتسلمها من خزانة الدولة ؛ فأجابني بأن تلك الأوراق ليست جديدة بحال ، وأنه يكويها في البيت . إذ أن ضميره لا يبيح له أن يعطي أياً من كان أوراقاً نقدية وسخة ، هي مباءة لأخطر أنواع الجراثيم ، وقد تسبب الضرر لكل من يمسها . كنت أحدس بإبهام منذ ذلك الزمن بالصلات بين الأعصبة والحياة الجنسية ، وعليه فقد اجترأت على سؤال مريضي في مناسبة أخرى عن هذا الموضوع . فقال في شيء من الاستخفاف : « أوه ! كل شيء منتظم من هذه الناحية ، فأنا لا أحكم على نفسي بالحرمان . فكثيرة هي الأسر البورجوازية التي ألعب لديها دور العم المسن الطيب ، وأغتنم فرصة ذلك لأدعو بين الحين والآخر صبية من صبايا البيت للخروج معي في نزهة في الريف . وعندئذ أتدبر الأمر بحيث يفوتنا القطار الأخير ، فنضطر إلى قضاء الليلة في الريف . عندئذ أحجز غرفتين في الفندق ، فأنا من أهل السخاء . لكن عندما تتمدد الفتاة في فراشها ، آتي إليها وأجلد لها عميرة » . فقلت : « لكن ألا تخشى أن تؤذيها وأنت تعبث بعضوها بيدك القذرة ؟ » . فاستحوذ عليه الغضب وقال : « أؤذيها ؟ كيف يمكن لذلك أن يؤذيها ؟ إن ذلك لم يسبب الأذى بعد لأي منهن ، وجميعهن استمتعن بما فعلته لهن ! إن الكثيرات منهن قد تزوجن الآن ، ولم يلحقهن من جراء ذلك أي اذى ! » . لقد وقعت ملاحظتي من نفسه موقعاً بالغ السوء ، ولم يرجع إلي قط . وما استطعت ان أفسر التفارق بين وسوسة ضميره بخصوص الأوراق النقدية وبين استهتاره في

استغلال الفتيات اللائي يُعهد بهن اليه إلا بعملية **نقل** لوجدان **التبكيت** . ولقد كان الغرض من هذا النقل واضحاً للغاية : فلو ترك تبكيته حيث كان ينبغي أن يكون ، لكان توجب عليه أن يقلع عن إشباع جنسي كانت تدفعه اليه في أرجح الظن محدِّدات طفلية قوية . وهكذا كان يحصل عن طريق النقل على **مكسب من المرض** كبير .

ينبغي لي الآن أن أصف تفصيلياً العلة الظرفية لتمخض العصاب لدى المريض الذي نحن بصدده . كانت والدته قد أنشئت لدى أقارب بعيدين ، في أسرة غنية من كبار الصناعيين . وكان أبوه ، على أثر زواجه من أمه ، قد عمل في مصانع تلك الأسرة ، بحيث أنه ما أصاب ما أصابه من ثراء عريض إلا بفضل زواجه . وقد علم مريضنا ، من الممازحات التي يتبادلها الزوجان ، اللذان كانا يعيشان في تفاهم تام ، أن أباه كان ، قبل أن يتعرف الى أمه بزمن وجيز ، قد تودد الى فتاة جميلة وإنما فقيرة ومن أسرة متواضعة . تلك كانت المقدمة . وبعد وفاة أبي مريضنا ، قالت له أمه يوماً إنها تكلمت مع ذويها الأغنياء في شأن مستقبله وإن واحداً من أبناء عمومتها أبدى استعداده لأن يزوجه واحدة من بناته حالما ينتهي من دراسته ؛ وكان من شأن علاقات العمل مع هذه الأسرة الغنية أن تفتح آفاقاً باهرة لمستقبله المهني . وأضرمت هذه الخطة العائلية صراعاً فيه : أيبقى على وفائه لصديقته الفقيرة أم يقتفي خطى أبيه ويقترن من الفتاة الجميلة الكريمة المحتد ، والثرية التي اختارتها له أسرته ؟ وهذا الصراع ، الذي كان في الواقع صراعاً بين حبه وبين إرادة أبيه المستمرة في التأثير عليه ، هو ما وجد حلاً له بأن وقع مريضاً ؛ أو بتعبير أكثر دقة ، تملص بالمرض من مهمة إيجاد حل لهذا الصراع على صعيد الواقع[٤٢] .

(٤٢) مما تجدر ملاحظته ان لواذه بالمرض أتاح إمكانيته له تماهيه مع أبيه . وهذا **التماهي** هو الذي مكّن وجداناته من النكوص إلى متخلفات الطفولة .

إن الدليل على صحة هذا التصور يكمن في أن النتيجة الرئيسية لعصابه كانت كفاً عن العمل أتاح لمريضنا أن يرجىء لعدة سنوات استكمال دراسته . غير أن ما ينجم عن العصاب انما هو غرضه الأول : فالنتيجة الظاهرة للمرض هي في الواقع علته ، أي الدافع الى الوقوع في المرض .

بديهي أن تعليلي لم يحظ في بادىء الأمر بقبول المريض . قال إنه لا يستطيع التسليم بمثل ذلك التأثير لمشروع الزواج الذي صممته له أسرته والذي لم يلق منه أدنى اهتمام في حينه . غير أنه لم يجد مناصاً في أثناء العلاج من أن يقتنع ، بطريقة فريدة في نوعها ، بصحة افتراضي . فقد عاش من جديد ، بفضل تخييل تحويلي ، ما كان نسيه من ماضيه أو ما لم يدر له في بال إلا لاشعورياً ، كما لو أنه واقع راهن . فقد اتضح من فترة غامضة وعويصة من العلاج أنه حسب فتاة التقاها يوماً على درج منزلي ابنتي . فوقعت من نفسه موقع الإعجاب ، وتخيل أنني إذا كنت أبديت نحوه ما أبديته من لطف بالغ وصبر خارق للمألوف فإنما ذلك لأنني وددت لو أنه يتزوجها ، ورفع من ثم إلى المستوى الذي يناسبه ثروة أسرتي وعراقتها . لكن حبه العصي على التدمير للسيدة كان يصطرع في نفسه ضد هذا الإغراء . وبعد أن وجه إلي شتائم مقذعة ، وتغلب على العديد من أعتى المقاومات ، ما أمكنه أن يتملص من التأثير المقْنِع للتشابه الكامل بين التخييلات التحويلية والواقع السالف . وسأسوق هنا حلماً من الأحلام التي رآها في هذه الفترة من العلاج لأوضح الكيفية التي كانت عواطفه تفصح بها عن نفسها : **رأى ابنتي أمامه ، ولكن كان ثمة قطعتان من الروث مكان عينيها** . وترجمة هذا الحلم لن تكون صعبة على كل من له دراية بلغة الأحلام : **فهو يتزوج ابنتي ، لا لسواد عينيها ، وإنما لمالها** .

(ز)
العقدة الأبوية وتصفية وسواس الجرذان

كان ثمة خيط يربط بين هذه العلة الظرفية للعصاب الذي أصيب به مريضنا في سنوات رشده وبين طفولته . فقد وجد نفسه في موقف كان مرّ بمثله أبوه ، فيما يعلم أو فيما يفترض ، قبل زواجه ، ومن ثم كان في مقدوره أن يتماهى وهذا الأخير . وكان الأب المتوفى يتدخل بكيفية أخرى بعد في المرض الراهن لمريضنا . فصراعه المرضي كان بالفعل ، وفي جوهره ، صراعاً بين استمرارية الإرادة الأبوية وبين عواطفه الحبية . وإذا اخذنا بعين الاعتبار التصريحات التي أدلى بها المريض في أثناء الجلسات العلاجية الأولى ، تحتم علينا أن نفترض أن ذلك الصراع كان قديماً للغاية ، ولا بد أنه نشأ منذ عهد طفولته .

كان والد مريضنا ، بحسب كل المعلومات ، رجلاً ممتازاً . وكان قبل زواجه ضابط صف ، وقد احتفظ ، من مخلفات تلك الحقبة من حياته ، بصراحة عسكرية وبإيثار للتعابير النابية . وعلاوة على الفضائل التي تُنسب في العادة الى الأموات جميعاً ، كان يتميز بروح الدعابة الودية وبسماحة عطوف حيال أقرانه ؛ ولئن اتفق له أحياناً أن غلب عليه النزق والعنف فما كان ذلك يتنافى بكل تأكيد مع طبعه برمته ؛ بل كان على العكس تتمة لازمة له . وكانت سورات نزقه العنيفة تحمله على إنزال أقسى العقوبات بأولاده حين كانوا ، وهم صغار ، يتمادون في « الشقاوة » . ولما شب الأولاد عن الطوق تميز عن سواه من الآباء بأنه بدلاً من أن يحاول أن يفرض عليهم سلطة ذات هالة قدسية راح يطلعهم على ما عاناه في حياته من إخفاقات صغيرة وما وقع فيه من أخطاء ، وذلك في صراحة مستطابة . ومن المحقق أن مريضنا لا يبالغ حين يقول إنه وأباه كانا أفضل صديقين في الوجود ، خلا ما يتصل بنقطة محددة

(انظر ص ٦٣) . وهذه النقطة اليتيمة هي التي كانت السبب في أن مريضنا تسلطت عليه في طفولته ، بشدة مجاوزة الحد وغير مألوفة ، فكرة موت أبيه (انظر ص ١٩) . ولهذا السبب ايضاً كانت مثل تلك الخواطر تتبدى في مضمون وساوسه الطفلية ، ولهذا أمكن له أيضاً أن يتمنى موت ذلك الأب كيما تتحرك مشاعر الشفقة في نفس فتاة صغيرة بعينها ، فتزداد حباً له (انظر ص ٥٦) .

لا مرية في أن الأب والابن فصل بينهما في مضمار الشهوانية شيء ، وفي أن الأب وقف عائقاً في سبيل النمو المبكر للابن . فبعد عدة سنوات من وفاة الأب ، وحين عرف الابن لأول مرة الإشباع الجنسي عن طريق الجماع ، بزغت في ذهنه هذه الفكرة : « إن هذا لعظيم ! وإن المرء ليقتل أباه من أجل ذلك ! » . كان ذلك صدى وتفسيراً في آن معاً لوساوسه الطفلية . ثم إن الأب ، قبيل وفاته بقليل ، كان وقف موقف المعارضة من العاطفة التي ستلعب دوراً مهيمناً في حياة مريضنا لاحقاً . فقد فطن الأب الى أن ابنه ينشد عشرة تلك السيدة ، فنصحه بألا يتورط معها أكثر مما ينبغي ، وقال له إنه يرتكب بذلك حماقة لن تجلب عليه غير السخرية .

إلى هذه المعطيات التي لا مماراة فيها ، انضافت وقائع تتصل بالنشاط الاستمنائي عند مريضنا . ويوجد ، في موضوع الاستمناء ، تناقض بين آراء الأطباء وآراء المرضى لم ينل حتى الآن حظه من الدراسة . فالمرضى يجمع رأيهم كلهم على القول إن الأونانية[٤٣] ، التي يقصدون بها الاستمناء في مرحلة البلوغ ، هي الأصل والمصدر الأول لأدوائهم كافة . أما الأطباء فلا يعرفون إجمالاً ما ينبغي أن يروه من رأي في هذه المسألة ، لكنهم يميلون ، استناداً الى علمهم بأن

(٤٣) الأونانية : الاستمناء . نسبة إلى أونان الذي ذكرت التوراة انه كان يمارس الجماع المبتور مع زوجة أخيه التي اقترن بها بعد وفاته . « م ».

معظم الأشخاص الأسوياء قد مارسوا الاستمناء لفترة ما ، في مرحلة البلوغ ، الى الحكم على تفاسير المرضى في هذا الخصوص بأنها تغالي ، في أكثر الحالات ، مغالاة مسرفة ، على أنني أميل هنا أيضاً الى إعطاء الحق للمرضى ، لا للأطباء . فالمرضى يرهصون هنا بواقعة أساسية يجازف الأطباء بأن يعموا عنها . صحيح أن الأمور لا تجري على النحو الذي يتصوره المرضى : فاستمناء البلوغ ، الذي يكاد يكون ظاهرة عامة ، لا يمكن أن يُحمَّل تبعة الاضطرابات العصابية كافة . دعوى المرضى لا بد لها إذن من تأويل . فأونانية البلوغ ليست في الواقع شيئاً آخر سوى طبعة جديدة من الأونانية الطفلية التي ضرب عنها حتى الآن صفح ، فأهملت ، والتي تبلغ في الإجمال أوجها بين السنة الثالثة والسنة الخامسة . والحال أن هذه الأونانية الطفلية هي في الواقع أجلى تعبير عن جبلَّة الطفل الجنسية التي نسعى ، نحن أيضاً ، الى أن نرى فيها اتيولوجيا[٤٤] الأعصبة اللاحقة . ومن ثم يتعين علينا أن نقول إن المعصوبين يلقون التبعة ، في تلك الصورة المتنكرة ، على جنسيتهم الطفلية الخاصة ، وهم في ذلك محقون تماماً .

وبالمقابل ، تغدو مشكلة الأونانية مستغلقة على كل حل إذا نظرنا الى الاستمناء على أنه واقعة سريرية قائمة بذاتها ، وغفلنا عن أنه يفيد في تفريغ مختلف مركِّبات الغريزة الجنسية والتخييلات التي تغذيها هذه الأخيرة . ومضرة الاستمناء ليست مستقلة بذاتها ، أي متحددة بطبيعته الخاصة ، إلا الى حد ضئيل . فهذه المضرة راجعة ، في جزئها الأكبر ، الى الفاعلية الإمراضية للنشاط الجنسي للشخص المعني .

وإن يكن أشخاص لا يحصى لهم عد يتحملون الأونانية ، أي مقداراً من هذا النشاط ، بدون أن يتأذوا ، فمعنى ذلك أن الجبلَّة الجنسية ومسار

(٤٤) الإتيولوجيا : علم الأسباب بعامة ، ومبحث أسباب المرض بخاصة . « م » .

نمو الحياة الجنسية عندهم مكّناهم من ممارسة الوظيفة الجنسية ضمن الشروط الأخلاقية والاجتماعية التي تفرضها الحضارة(٤٥) ، بينما يكون المرض هو الكيفية التي يستجيب بها أشخاص آخرون لجبلّة جنسية غير مؤاتية أو لاضطراب في مسار نمو جنسيتهم ، أي أن هؤلاء الأشخاص لا يستطيعون أن ينجزوا ، بلا كفوف أو تشكيلات بديلة ، كبح مقوماتهم الجنسية وإعلاءها .

والحال أن سلوك مريضنا إزاء الاستمناء كان يتسم بسمة بالغة الخصوصية : فهو لم يعرف استمناء البلوغ ، ومن ثم كان له أن يتوقع ، بحسب بعض التصورات ، أن يبقى بمنجى من كل إصابة عصابية . غير أن حفزة الاستمناء ظهرت لديه بالمقابل في سنته الحادية والعشرين ، **بعيد وفاة أبيه بقليل** . وكان بعد كل إشباع استمنائي يشعر بخزي شديد . وسرعان ما عزف عنه عزوفاً تاماً . ومنذئذ لم تعاود الأونانية ظهورها لديه إلا في مناسبات نادرة وفريدة . قال : « كانت لحظات خاصة من حياتي أو مقاطع بديعة الجمال من مطالعاتي هي التي تحفزني على الاستمناء . ومن قبيل ذلك ، مثلاً حينما سمعت عصر يوم جميل من أيام الصيف ، في المدينة الداخلية ، الصوت الأخاذ لبوق ظل ينفخ فيه الحوذي الى أن أوقفه عن ذلك شرطي لمخالفته التعليمات التي تحظر النفخ في الأبواق في قلب المدينة . ومرة أخرى حينما كنت أطالع في كتاب **الحقيقة والوهم**(٤٦) كيف أن غوته ، وكان في حينه شاباً ، قد تحرر ببادرة محبة من لعنة كانت امرأة غيور قد استنزلتها على أول امرأة من بعدها يقبل شفتيها . فقد كان غوته ارتدع لأمد طويل من الزمن تطيراً من تلك اللعنة ، ولكنه في تلك اللحظة حطم قيوده وقبل

(٤٥) انظر **ثلاثة مباحث في نظرية الجنس** ، لايبزغ وفيينا ١٩٠٥ (انظر ترجمتنا العربية لهذا الكتاب الصادرة عن دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ . « م ») .

(٤٦) السيرة الذاتية لغوته . « م » .

حبيبته من كل قلبه » .

لقد عجب مريضي لاضطراره الى الاستمناء على وجه التحديد في تلك الأويقات الرائعة الجمال والباعثة على النشوة . فلفتّ نظره الى السمة المشتركة بين ذينك المثالين : التحظير والتصرف بعكس المنهي عنه .

ويندرج في هذا السياق نفسه مسلكه الغريب يوم كان يستعد للامتحان : فقد كان يحلو له وقتئذ أن يتخيل أن أباه لا يزال حياً ويمكن أن يؤوب بين لحظة وأخرى . وقد تدبر أمره حينئذ ليذاكر ليلاً . وبين منتصف الليل والواحدة صباحاً كان يتوقف ، ويفتح الباب الخارجي ، وكأنما أبوه يقف عنده، ثم يدلف ويتأمل قضيبه في مرآة مدخل الدار. ولن نستطيع لهذه المناورات الغريبة فهماً ما لم نفترض أنه كان يتصرف حينئذ وكأنه يتوقع زيارة أبيه له في ساعة خروج الأشباح . وكان مريضنا في أثناء حياة أبيه طالباً كسولاً إجمالاً ، وهذا ما كان يحزن والده . أما الآن فبوسع الأب أن يرضى عن ابنه اذا ما عاد في إهاب شبح ووجده منكباً على المذاكرة. بيد أن أباه ما كان بكل تأكيد ليغتبط لو عاين أفعاله الأخرى : لهذا كان مريضنا يثور عليه ويتمرد . على هذا النحو كان المريض يعبر بفعل قهري لا مفهوم واحد عن وجهي عاطفته تجاه أبيه ، تماماً مثلما عبر فيما بعد ، بفعله القهري المتصل بالحجر المرمي في الطريق ، عن ازدواج عاطفته حيال صديقته الحبيبة .

استناداً الى هذه المعطيات ، والى معلومات أخرى مماثلة ، اجترأت على مكاشفته بفرض افترضته ، ومؤداه أنه ارتكب في نحو السنة السادسة من عمره فعلة سيئة من طبيعة جنسية تتصل بالاستمناء وعوقب عليها معاقبة صارمة من قبل أبيه . وهذه العقوبة ، التي وضعت حداً للاستمناء ، خلفت فيه وراءها ، بحسب افتراضي ، حقداً لا يمكن محوه على أبيه ، وكرست الأب الى الأبد في دور معكر صفو الحياة الجنسية للابن ومعيقها (انظر افتراضاتي المشابهة في

واحــدة من الجلســات الأولى ، ص ٢٤) . وعلى دهش عـظيم مـني أخبرني المريض عندئذ أن حـادثة من هـذا القبيل تـعود الى طفولتـه المبـكرة سـردتها عليـه أمه ، في منـاسبات عـدة ، وأنه إن كـانت لم تنسها ، فهذا بالتأكيد لأن وقائع غريبة ترتبط بها . على أنه هو نفســه لا يحتفظ من ذكراها بأي أثر . فحين كان لا يزال طفلاً صـغيراً (كان من الممكن تحديد سنه بصورة أدق بالنظر الى تطابق الحادثـة زمنياً مـع مـرض أخت أكبر منه سناً وموتها) ، ارتكب فعلة سيئـة معيَّنة عـاقبه عليها أبوه بضربه . وعندئذ انتـابت الصغير سـورة حنق مخيفة وراح يشتم أباه فيما راح هذا يكيل له الضربات .

ولكن بما أنه كان يجهل بعد ألفاظ الشتائم ، فقد راح ينهال على أبيه بأسماء جميع ما يعرفه من أشياء، مثـل : « أنت يا لمبـة ! أنت يا فوطة ! أنت يا صحن ! » الخ . وقد فوجيء الأب بتفجيـر هذا الغضب العاصف وأمسك عن ضربه وقـال : « هذا الصغيـر سيغدو إمـا رجلاً عظيماً وإما مجرماً خطيراً ! »[٤٧] . ومريضنا مقتنع بـأن هذه الحـادثة خلفت فيه ، كما في أبيه ، أثراً دائماً . فأبوه ما عاد قط الى ضربه . أما هو فقد حمّل هذه الحادثة تبعة ما طرأ على طبعه من تغير : فخوفاً من عنف حنقه اذا ما تفجر ، صار جباناً . ثم إن خوفه من الضربات كـان طول حياته يصل الى حد الرعب ، وكان اذا ما وقع نظره على واحد من إخوته أو أخواته يُضرب يختبيء وقد امتلأت نفسه رعباً واستنكاراً .

أكدت أمه ، لما عاد الى استعلامها من جديد ، صحـة القصة ، وأضافت أن المريض ، الذي كان آنئذ في الثالثة أو الرابعة من العمر ، استأهل تلك العقوبة لأنه عـضّ أحدهم . ومـا كانت الأم تـذكر شيئـاً آخر ؛ ولكنها تعتقد أنه من المحتمل أن يكون الطفل عـضّ مربيته . وما

(٤٧) هذان الحدان لا يستنفدان كل الاحتمالات . فالأب لم يخطر له ببال المآل الأكثر شيوعاً لمثل تلك الانفعالات المبكرة : العصاب .

كانت رواية الأم للقصة تشير الى أي طابع جنسي للحادثة[٤٨] .

(٤٨) كثيراً ما تواجهنا في جلسات التحليل النفسي أحداث من هذا القبيل تعود إلى الطفولة الأولى ، أي إلى السن التي يبلغ فيها النشاط الجنسي الطفلي ، فيمـا يبدو ، ذروتـه وينتهي غالباً نهاية مأساوية من جراء مصادفة عاثرة أو قصاص . وتظهر هذه الأحداث في الأحلام ظهوراً شبحياً ، وكثيراً ما تبلغ حداً من الوضوح يخيل معه للمرء وكـأنه مستـطيع أن يلمسهـا لمس اليد ، لكنهـا على الرغم من ذلك تفلت من أي استجـلاء نهائي ، وإذا لم نتصرف ببراعة واحتراز فقد يعز علينا أن نصل إلى قرار نبتّ بموجبه فيما إذا كان المشهد المشار إليه قد حدث في الواقع فعلاً . وإذا أردنا الاهتداء إلى طريق التأويل ، فلا بد أن نأخذ في اعتبارنا أن مخيلة المريض اللاشعورية قد تنطوي على أكثر من صيغة واحدة لمثل تلك المشاهد ، وأحياناً على صيغ شديـدة التباين . وكيما نتحاشى [illegible] في [illegible] الواقع ، ينبغي أن نضـع نصب أعيننا أن « ذكـريات الطفولة» عند الناس لا تتسبب [illegible] مت[illegible]رة (في زمن البلوغ في الغالب) ، وأنهـا تخضع عندئذ لعملية إعادة صياغة معقدة . مثلها [illegible] ذلك مثل عملية صياغة الشعوب لأساطيرها عن ماضيها الأول . ونستطيع أن نتبين بوضوح أن المر[illegible] يسعى إلى أن يمحو ، في تخييلاته عن طفولته ، ذكرى نشاطه الإيروسي الذاتي . وهو يتوصل إلى ذلك برفعه إلى مستوى الحب الموضوعاني الآثار المتخلفة عن الإيـروسية الذاتيـة ، تماماً كما يفعل المـؤرخ في الواقع حينما يحاول أن يـرى إلى الماضي على ضـوء الحاضر . ومن هنا كانت تلك التخييلات تزخر بعدد كبير من محاولات الاعتداء والإغواء الجنسي المتخيلة ، بينما يكون الواقع قد اقتصـر على نشاط إيـروسي ذاتي حضت عليه المداعبات أو العقوبات . ثم إننا نفـطن ، ناهيـك عن ذلك ، إلى أن أولئك الذين ينسجون تخييلات عن طفولتهم يعمدون إلى تجنيس ذكرياتهم ، أي يربطون أحداثاً عادية بنشاطهم الجنسي ويسحبون عليها اهتمامهم الجنسي ، وإن تتبعوا في فعلهم هذا في أرجح الظن آثار ترابطات ذات وجود واقعي . وكل من يتذكر تحليل رهاب لدى صبي صغير في الخامسة (انظر ترجمتنا لهذا النص في التحليل النفسي لرهاب الأطفال ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٤ . « م ») ، سيدرك أنني لا أقصد بملاحظاتي الآنفة أن أنتقص من شأن الجنسية الطفلية وأن أختزلها إلى مجرد اهتمام جنسي في سن البلوغ . وإنما أود فقط أن أقدم بعض إرشادات تقنية لفهم التخييلات التي ترمي إلى تزييف صورة النشاط الجنسي الطفلي بحصر المعنى .
نادراً ما يسعفنا الحظ فنجد أنفسنا ، كما في حالة مريضنا ، في موقف نستطيع فيه أن نتحقق على نحو لا يرقى إليه الشك ، بفضل شهادة راشد ، من صحة الوقـائع التي بالاستناد إليها نسجت التخييلات عن الطفولة . بيد أن شهـادة والدة مريضنـا تترك =

وما دمت قد ناقشت في حاشيـة في أسفل الصفحـة قيمة هـذا المشهد الطفلي ، فسأكتفي بأن ألفت النظر هنا الى أن ظهور ذكرى ذلك

= الباب مشرعاً مع ذلك أمام احتمالات شتى . فربما كان نشاط الرقابة عندها هي ذاتها هو ما جعلها تغفل تحديد الطبيعة الجنسية للفعلة السيئـة التي ارتكبها طفلهـا ، تلك الرقابة التي تنـزع إلى أن تحذف لدى جميـع الآباء والأمهـات العنصر الجنسي من ماضي أطفالهم . لكن من المحتمل أيضاً أن يكون الطفل قد وبخ من قبل مربيته أو أمه على سوء سلوك عادي متجرد من الطابع الجنسي ، فكان رد فعله عليه عنيفاً استوجب العقاب من جانب الأب . وفي هذا النوع من التخييلات تحلّ المخيلةُ في العادة محل المربية أو الخادمة شخصية الأم الأكثر تميزاً . ومهما يكن من أمر ، فإن التعمق في تحليل أحلام مريضنا ذات الصلة بتلك الأحداث أتاح لنا أن نكتشف أجلى العلائم على وجود نوع من الإبداع الخيالي لديه يتسم بطابع ملحمي بطولي ، وترتبط فيه الرغبات الجنسية تجاه أمه وأخته ، بل حتى الوفاة المبكرة لهذه الأخيرة ، بالعقوبة التي كـان الأب أنـزلها بـالبطل الصغيـر . ولم أوفق إلى أن أفك خيـطاً خيطاً كـل هذا الكسـاء المنسوج من التخييلات ؛ والنجاح العلاجي تحديداً هو الذي حـال دون ذلك . فلقـد أبل المريض ، ولم يكن أمامه مناص من أن يتصدى للمشكـلات العديـدة التي كانت تواجهه بها الحياة ، وهي مشكلات بقيت معلقة أمداً من الزمن أطول مما ينبغي ، ولم يكن حلها يتنافى ومواصلة العلاج . أرجو القارىء إذن ألا يؤاخذني على هذه الثغرة في التحليل . فالاستقصاء العلمي عن طريق التحليل النفسي ما يزال إلى اليوم نتاجاً فرعياً للجهود العلاجية ؛ ولهذا كثيراً ما يأتي المردود العلمي ثراً على وجه التحديد في الحالات التي لم يكلل علاجها بالنجاح .

إن قوام الحياة الجنسية الطفلية نشـاط إيروسي ذاتي للمقـومات الجنسيـة الجزئيـة الغالبة ، وآثار من حب موضوعاني ، وتكوين تلك العقدة التي قد يحق لنا أن نسميهـا **العقدة النووية للأعصبة** . وتضم هذه العقدة انفعـالات الحب والكره الأولى نحـو الوالدين ، والإخوة والأخوات ، وفي الغالب بعد أن تستيقظ فضولية الطفل عقب ميلاد أخ أو أخت له . وإن تكن التخييلات التي يكوِّنها الأفراد عن طفـولتهم هي بالإجمـال واحـدة ومتماثلة ، بصـرف النظر عن دور الحيـاة الواقعية فيهـا ، فهذه واقعـة قليلة للتفسير بأحادية نمط النزعات المتضمَّنة في تلك العقدة وبالثبات الذي تظهر به لاحقاً المؤثرات المعدِّلة . والسمة الأساسية **لعقدة الطفولة النووية** هي أن الأب يضطلع فيهـا بدور العـدو في الميدان الجنسي ، بـدور المعيق للنشاط الجنسي الإيـروسي الذاتي . وفي الغالبية العظمى من الحالات يسهم الواقع نفسه بقسط موفور في قيام هذا الموقف الوجداني .

المشهد الطفلي قد زعزع مريضي الذي كـان يأبى الى ذلك الحين أن يصدق أنه كانت ساورته مشاعر حنق إزاء أبيه ، وهي مشاعر تكونت في « مرحلة ما قبل تاريخيـة » من حياتـه ، ثم ما لبثت أن غـدت كامنـة . والحق أنني كنت توقعت مفعولاً أكبر بعد ، إذ أن تلك الحادثة رويت له مـراراً وتكراراً حتى من قبـل أبيه بحيث بـات من المتعـذر الشـك في واقعيتها . والحال أن مريضي راح ، متسلحاً بتلك القـدرة على تزييف المنـطق التي نجدنـا نعجب في كـل مـرة لوجـودهـا لدى العصـابيين الوسواسيين الذين هم في الغالب من ذوي الذكـاء المرمـوق ، ينقض القيمة الإقناعية لتلك القصة محتجاً بأنه هو نفسه لا يتذكر الحادثـة . ومن ثم لم يكن ثمة مناص من أن يقتنع ، عن طريق التحويل المؤلمـة ، بأن علاقته بوالده كانت تنطوي حقاً على تلك العواطف اللاشعوريـة . وهكذا انتهى به الأمـر الى الانهيال بالشتائم النـابية والمقـذعة ، في أحلام يقظته وتداعيـاته ، علي وعلى أسـرتي ، مع أنـه ما كـان يشعر تجاهي في شعوره ووعيه الا بأجلّ الاحترام . وكان سلوكه ، حين كان يكاشفني بشتائمه ، سلوك إنسان غلبه اليأس والقنـوط . كان يقـول : « كيف يمكن لك ، سيدي الأستاذ ، أن تتحمل توجيه مثل هذه الإهانات إليك من جانب شخص حقير مثلي ؟ الأجدر بك أن تطردني خارجاً ، فأنا لا أستأهل أحسن من ذلك » . كان ، وهو ينطق بهذه العبارات ، ينهض عن الأريكة ويركض بين أرجاء الغرفة . وقد فسر هذا السلوك أول الأمر بأن ضميره لا يحتمل أن يتلفظ لسانه بمثل تلك الأشياء الفظيعة ، بينما هو مستلقٍ بكل راحة على الأريكة . غير أنه سرعان ما اهتدى هو نفسه الى تفسير أقرب الى الحقيقة : فهو يبتعد عني خوفاً من أن أضربـه . وحين كان في بعض المرات يخبـرني بخواطره المهينـة الجارحـة وهو ممدد على الأريكة ، كان يتصرف كما لو أنه يحاول ، وقد استحوذ عليه رعب عظيم ، أن يحمي نفسه من قصاص رهيب : فكان يخفي رأسه بين يديه ، ويغطي وجهه بذراعيه ، ثم ينهض فجأة مولياً الأدبار ، وقد قبض

الألم قسمات وجهه ، الخ . كان يتذكر كم كان أبوه عنيفاً حتى إنه كان لا يعرف أحياناً عند أي حد يقف في غضبه . وفي مدرسة التحويل المؤلمة هذه تولد لدى المريض رويداً رويداً الاقتناع الذي ما كان ليلاقي أي صعوبة في فرض نفسه على أي شخص آخر لا صلة له بتلك الأحداث: الاقتناع بوجود لاشعوري لكراهيته لأبيه . وعلى أثر ذلك انفتح الطريق أمام تصفية وسواس الجرذان . وبذلك غدت متاحة لنا جملة من الوقائع والمعطيات الواقعية ، كان امتنع الى ذلك الحين عن الإتيان بذكرها ، فمكنتنا في أثناء العلاج بالذات من إعادة بناء ترابط الأحداث .

سأحاول قدر المستطاع ، في روايتي لهذه الأحداث ، أن ألتزم جانب الإيجاز والاقتضاب . كان اللغز الأول بطبيعة الحال هو لغز الإثارة والاستجابات المرضية البالغة العنف التي ابتعثها لدى مريضنا الأمران اللذان أبلغهما به النقيب التشيكي : حين دعاه أولاً الى تسديد المال للملازم أ ، وحين سرد عليه ثانياً قصة الجرذان . لم يكن أمامي مناص من الافتراض بأن المسألة مسألة « حساسية عقدية » ، وأن تلك العبارات قد مست مساً عنيفاً نقاطاً مسرفة الحساسية في لاشعوره . وكذلك كان واقع الحال : إذ كان مريضنا ، في كل مرة يُطلب فيها الى الخدمة العسكرية، يتماهى لاشعورياً مع أبيه الذي كان أمضى هو نفسه عدة سنوات من حياته في العسكرية ، والذي كان من عادته أن يروي الكثير من وقائع تلك الفترة من حياته . والحال أن المصادفة ، التي يمكن أن تسهم في تكوين عرض من الأعراض مثلما يمكن أن تسهم مفردات الجملة في تكوين النكتة ، شاءت أن يجمع عنصر مهم بين مغامرة صغيرة لأبيه وبين كلمات النقيب . فقد كان أبوه خسر ذات مرة في الميسر مبلغاً صغيراً من المال كان موضوعاً في عهدته باعتباره ضابط صف (سالكاً على هذا النحو سلوك « جرذ لعب الورق »)[٤٩] ،

(٤٩) بالألمانية SPIELRATTE، وهو تعبير يطلقه العامة على المقامر . « م »

وكان سيواجه متاعب خطيرة لولا أن أحد رفاقه سلّفه المبلغ . وبعد ما ترك الأب المهنة العسكرية وصار رجلاً ثرياً ، فتش عن ذلك الرفيق الشهم ، فما عثر له على أثر . ولم يكن مريضنا واثقاً حتى من أن أباه وفق الى رد المبلغ : فذكرى خطيئة الشباب هذه التي تورط فيها والده كانت منغصة له ، لأن لاشعوره كان يطفح بالانتقادات العدائية حيال طباع أبيه . وقد دوت كلمات النقيب : « عليك أن ترد الى الملازم أ الكورونات الـ ٣,٨٠ » في أذني الابن وكأنها تلميح الى الدين الذي لم يسدده الأب .

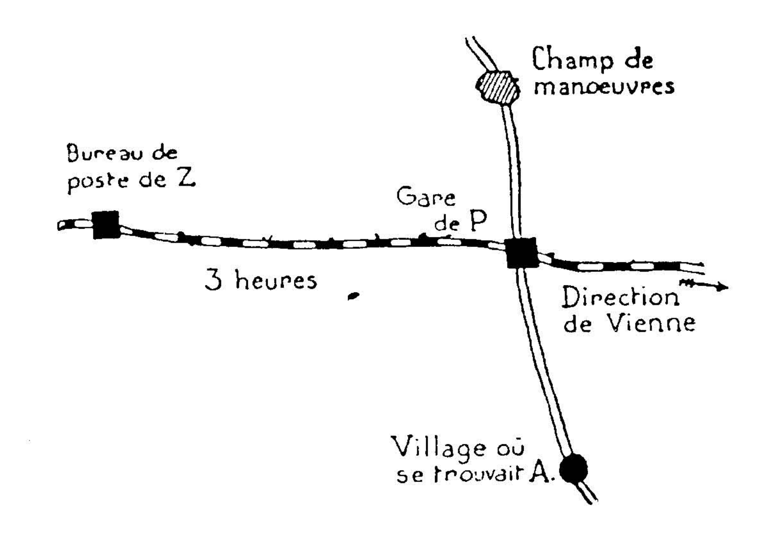
ومن ناحية أخرى فإن مبادرة المستخدمة الشابة في البريد في ز من تلقاء نفسها الى سداد المبلغ المطلوب دفعه مقابل تسليم الطرد ، مكيلة في الوقت نفسه بعض المديح لشخص مريضنا[٥٠]، عززت تماهيه مع أبيه في مجال آخر. فقد استكمل حينذاك روايته للأمور بأن حكى لي أن الابنة الجميلة لصاحب النزل الذي يقع على مقربة من مكتب البريد قد أبدت نحوه تودداً حاراً ، بحيث أنه عقد النية على العودة الى هناك بعد نهاية المناورات ليجرب حظه معها . والحال أن مستخدمة البريد صارت عندئذ منافسة وغريمة لابنة صاحب النزل : ومن ثم صار في وسعه أن يتساءل ، مثله مثل أبيه في القصة التي تأدت به الى الزواج، لأي من الفتاتين يبذل عاطفته بعد انتهاء الخدمة العسكرية . وهنا ندرك فوراً أن تردده الغريب بين أن يسافر الى فيينا أو أن يرجع الى الموضع الذي يقع فيه مكتب البريد ، وأن الإغراء المتواصل الذي ساوره في أثناء سفره بأن يعود أدراجه الى ز (انظر ص ٣٩) ما كانا خاليين من المعنى الى الحد الذي تبديا لنا به في أول الأمر . فبالنسبة الى فكره

(٥٠) لا ننسَى أنه علم بذلك قبل أن يدعوه النقيب (عن سوء فهم) الى تسديد المبلغ الى الملازم أ . وهذه نقطة لا غنى عنها لفهم ما سيلي ، وقد ألقى كبحها بمريضنا في حالة من الخلط الشديد حالت لفترة ما بيني وبين إدراك معنى الأمر في جملته .

الشعوري كان الانجذاب الى **ز** ، حيث يقع مكتب البريد ، تعلله حاجته الى الوفاء بقسمه بالاستعانة بالملازم أ . أما في الحقيقة فإن مستخدمة البريد كانت هي موضوع رغبته في العودة الى **ز** . وقد ناب الملازم في تصوره مناب هذه المستخدمة الشابة ، لأنه كان يقيم في المكان نفسه ولأنه كان مكلفاً في الوقت عينه بالبريد العسكري . وحين علم المريض أن الملازم **ب** ، لا الملازم **أ** ، هو الذي كان مكلفاً في ذلك اليوم بالبريد ، أدخل ذلك الملازم أيضاً في شطحاته ، وصار من ثم في استطاعته أن يكرر تردده بين الفتاتين بإحلاله محلهما الضابطين في أفكاره شبه الهذائية(٥١) .

---

(٥١) (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣) ـ كما أن المريض لم يدخر وسعاً في تشويش قصة المبلغ الواجب دفعه مقابل تسليم الطرد ، كذلك لعلي لم أفلح أنا أيضاً في إيضاح عرضي لها على أتم نحو . ولهذا اقدم هنا خريطة صغيرة حاول عن طريقها السيد والسيدة ستراشي (مترجماً فرويد الى الانكليزية «م») أن يجعلا الموقف بعد انتهاء المناورات أكثر قابلية للفهم .



وحتى نفهم على نحو أفضل ما كان لقصة الجرذان التي رواها النقيب من وقع عليه ، يجدر بنا أن نتتبع عن كثب مسار التحليل . فقد طفقت كمية وفيرة للغاية من معطيات التداعي تخرج الى النور ، ولكن بدون أن يغدو التشكيل الوسواسي أكثر شفافية ووضوحاً في البداية . وكان تصور المعاقبة بالجرذان قد استثار عدداً من حاجات المريض ونبه جملة من الذكريات ، ولهذا السبب اكتسبت الجرذان ، في الفترة المنصرمة ما بين سرد النقيب للقصة وطلبه إليه تسديد المبلغ ، عدداً من الدلالات الرمزية التي انضافت اليها لاحقاً ، وبصورة متواصلة ، دلالات جديدة . وروايتي للأمر لا يمكن إلا أن تأتي ناقصة جداً . فعقوبة الجرذان أيقظت في المقام الأول الإيروسية الشرجية التي لعبت في طفولة المريض دوراً كبيراً ووجدت على مدى سنوات مديدة ما يغذيها في معاناته من ديدان معوية . وهكذا اكتسبت الجرذان دلالة « المال »(٥٢) ، وهي علاقة تجلت من خلال ربطه عن طريق التداعي بين « الجرذان » و « الحصص »(٥٣) . وكان قد ابتدع لنفسه في حالته الوسواسية شبه الهذائية قاعدة للنقد، بكل ما في الكلمة من معنى، من الجرذان ؛ ومن ذلك مثلاً أنني حين حددت له ، رداً على سؤاله ، مقدار ما أتقاضاه من أتعاب عن الجلسة الواحدة ، أجرى حسابه على النحو التالي (وهو ما لم أعلمه إلا بعد انقضاء ستة أشهر) : « كذا من

= وقد لاحظ مترجماي بحق أن سلوك المريض يبقى مستغلقاً على الفهم ما لم يَجْرِ النص بعبارة واضحة على أن الملازم **أ** كان أقام من قبل في بلدة **ز** التي يوجد فيها مكتب البريد ، وأنه كان يتولى هناك خدمة البريد العسكري ، ولكنه أوكل هذه المهمة في الأيام الأخيرة من المناورات الى الملازم **ب** ، بعدما صدر أمر بنقله الى موقع آخر . ولم يكن النقيب « القاسي » يعلم شيئاً بعد عن هذا التبديل ، ومن هنا كان خطؤه حين طلب الى مريضنا أن يسدد المبلغ الى الملازم أ .

(٥٢) انظر فرويد : **الطبع والإيروسية الشرجية** ، الأعمال الكاملة ، م ٧ .

(٥٣) الجرذ بالألمانية RATTE ، والحصة RATE «م» .

بحثت عن أصل هذه الدلالة الجديدة ، وجدتني أصطدم للحال بأقدم الجذور وأهمها إطلاقاً . ففيما كان يزور ذات يوم قبر والده لمح حيواناً كبيراً يمرق فوقه منسلاً ، فحسبه جرذاً[٥٩] . وقد خيل اليه أن الحيوان خرج من قبر أبيه فعلاً بعد ما فرغ من التهام جثته . وكان العض والقضم بأسنان مدببة قد ارتبطا منذ زمن بعيد في ذهنه بصورة الجرذ[٦٠] .

ولكن الجرذان لا يمكن أن تعض وأن تكون شرهة وقذرة بدون أن يطالها عقاب ، فالناس تطاردها وتقتلها بقسوة وبلا رحمة ، كما تأتّى له أن يلاحظ مراراً في رعب . بل كثيراً ما أخذته الشفقة على هذه الحيوانات المسكينة . والحال أنه كان هو نفسه حيواناً صغيراً مقرفاً وقذراً ، وحين كانت تستبد به سورة حنق كان يعرف كيف يعض ، فيلقى من جراء ذلك عقوبة رهيبة (انظر ص ١٢٠) . كان في مقدوره في الحقيقة أن يتعرف في الجرذ « صورته الطبيعية الناجزة »[٦١] . وقد رماه القدر ، إن جاز القول ، من خلال قصة النقيب ، بكلمة **كانت عقدته بها حساسة** ، فما توانى عن الاستجابة لها بفكرته الاستحواذية .

لقد كانت الجرذان ، بحسب خبرته المبكرة والخطيرة النتائج ، أطفالاً . وعندئذ روى لي واقعة كان أبقاها لأمد طويل من الزمن في منأى عن هذا السياق كله ، ولكنها تقدم إيضاحاً كاملاً لما كان يبديه من اهتمام بالأطفال . فالسيدة التي كان يهيم بحبها منذ سنوات عديدة والتي ما استطاع أن يحزم أمره على الاقتران بها كان مقضياً عليها بالعقم وعدم الإنجاب من جراء عملية جراحية نسائية تم فيها استئصال مبيضيها كليهما . بل كان ذلك واحداً من الأسباب الرئيسية لتردده ، هو الذي كان يحب الأطفال حباً جماً .

عندئذ فحسب تسنى لي أن أفهم السيرورة الغامضة لتشكيل الوسواس . فبمعونة النظريات الجنسية الطفلية والرمزية التي أزاح النقاب عنها تأويل الأحلام ، أمكنت ترجمة كل شيء الى أفكار واضحة المعنى والدلالة . فحينما روى النقيب ، في أثناء الاستراحة في عصر ذلك اليوم الذي أضاع فيه مريضي نظارته ، قصة التعذيب بالجرذان ، لم يسترع انتباه هذا الأخير في بادىء الأمر سوى طابع القسوة والشبق في الموقف المصوَّر . ولكن سرعان ما تم الارتباط مع مشهد طفولته الذي كان هو نفسه قد مارس فيه العض . ثم إن النقيب ، الذي كان ينافح عن عقوبات مشابهة لتلك التي كابد منها المريض ، أخذ عن هذا الأخير مكان الأب وجلب على نفسه قدراً من العداوة التي تأججت جذوتها من جديد والتي كانت تفجرت في ماضٍ بعيد رداً على قسوة الأب . والفكرة التي ومضت في ذهنه عندئذ من أن شيئاً من هذا القبيل يمكن أن يقع لشخص يعزه يمكن أن تترجم الى أمنية من قبيل : « إنما أنت الذي ينبغي أن يُفعل بك ذلك » ، وهي أمنية كانت تتجه ، من خلال شخص النقيب، الى والد المريض أيضاً . وحينما سلمه النقيب الطرد بعد ذلك بيوم ونصف يوم[٦٢] وذكره بوجوب تسديد الكورونات

= لا يتبدى الجرذ في الأساطير حيواناً مقرفاً بقدر ما يتبدى حيواناً مشؤوماً يبعث على القلق ، حيواناً جهنمياً ، إن جاز لنا القول ، يرمز الى نفوس الموتى .

(٥٩) كان ولا شك ابن عرس من تلك التي توجد بكثرة في المقبرة المركزية بفيينا .

(٦٠) يقول مفيستو في **فاوست** ، القسم الأول :

لكن لإبطال سحر هذه العتبة
لا بد لي من سن جرز
....
عضة أخرى من السن وينتهي الأمر .

(٦١) NATÜRLICH EBENBILD . أورباخ كيلر (حانة أورباخ ، في **فاوست** ، القسم الأول . «م ») .

(٦٢) لا في مساء ذلك اليوم نفسه ، كما ذكر في أول الأمر.وإنه لمن رابع المستحيلات أن تكون النظارة الأنفية الموصى عليها قد وصلت مساء اليوم نفسه . وقد اختزل هذا الفاصل الزمني في ذاكرته ، لأنه في أثنائه تحديداً تكونت لديه الارتباطات الفكروية

الـ ٣,٨٠ الى الملازم أ ، كان مريضنا يدرك بالفعـل أن هذا « الرئيس القاسي » على خطأ من أمره ، وأنه هو لا يدين بذلك المبلغ من المال إلا لمستخدمة البريد. وكان من الممكن عندئذ أن يجد في نفسه إغراء بأن يرد عليه بجواب تهكمي من قبيل : « تصور أني سأدفع ! » أو « أتراهن إن كنت سأدفع هذا المبلغ ! »[٦٣] . وما كـان لمثل هـذه الأجوبـة أن تنطق بها شفتاه . لكن بما أن العقدة الأبويـة وذكرى المشهـد الطفلي المشار اليه كانتا استيقظتا فيه ، فقد ارتسم في ذهنه جواب من هـذا القبيـل : « أجـل ، سـأرد المبلغ الى أ حينمـا ينجب أبي أو حبيبتي أطفالاً » أو : « من المؤكد أني سأرد اليه المبلغ مثلما هو مؤكد أن أبي وسيدة قلبي سينجبان أطفالاً » . وكان ذلك بمثابة وعد ساخـر مرتبـط بشرط غير معقول وغير قابل للتحقيق[٦٤] .

غير أن الجريمة قد ارتكبت الآن : فقد أهان أعز شخصين لديه ، أبيه وحبيبته ، وهو أمر مستوجب للعقوبة ، والعقوبة لن تكون إلا قسماً يستحيل الوفاء به وموجباً لطاعة أمر رئيسه الذي لا مبرر له : **عليك الآن فعلاً أن ترد المبلغ الى أ** . وقد كبت في هذه الطاعة القسرية ما كان يعرفه على نحو أفضل ممـا يعرفـه النقيب ، وهو أن أمـره يستند الى معطيات زائفة : « نعم ، عليك أن ترد ذلك المبلغ الى أ ، كما يطلب ذلك بديل الأب . فالأب لا يمكن أن يخطىء » . وصاحب الجلالة لا يمكن هو كذلك أن يخطىء ، واذا مـا خاطب أحدهم بلقب ليس له ، فـإن هـذا

= الحاسمة ، ولأنه يكبت واقعة لقائه بالضابط الذي اخبره بالبادرة اللطيفة لمستخدمة البريد ، وهو اللقاء الذي تم في أثناء ذلك الفاصل الزمني أيضاً .

(٦٣) الترجمة هنا غير حرفية تماماً ، لأن الجوابين المفترضين مصـاغان بـاللهجة العـامية الفيينـاوية . «م»

(٦٤) اللامعقولية تعني أيضاً ، في لغة الوساوس كما في لغة الأحلام ، السخرية والتهكم . انظر **تفسير الأحلام** ، الطبعة السابعة ، ص ٢٩٥ .

الشخص سيحمل هذا اللقب مذّاك فصاعداً .

إن هذه السيرورة كلهـا لم يصل منهـا الى شعور المـريض إلا تصور مبهم عنها ، لكن تمرده على أمر النقيب ، وانقلاب هذا التمرد الى ضده ، كانا بدورهما ممثَّلين في الشعور (أولاً فكـرة **ألا** يسدد المبلغ وإلا فإن ذلك ـ أي عقوبة الجرذان ـ سيقع ، وثانياً تحول هـذه الفكرة الى قسم بالاتجاه المعاكس ، كعقاب على تمرده) .

لنستعـد في أذهـاننـا مـرة أخـرى الظروف التي تشكـل فيهـا الوسواس الأكبر . كان ليبيسرو المريض منضغطاً نتيجـة لفترة طويلة من الاستنكاف ومن جراء التودد الذي كانت تبديه النساء تجاه الضابط الشاب . ثم إنه حين ذهب للمشاركة في المناورات كان في حالة من عدم المبـالاة حيال سيـدة قلبه . وكـان توتـر ليبيسرو هـذا عنـده يهيئـه لاستئناف صراعه القديم ضـد السلطة الأبويـة ، فاجتـرأ على التفكير بتدبر إشباع جنسي له عن طريق نساء أُخَـر . وراحت شكوكـه في ما يتصـل بذكـرى والده وبمزايـا صديقتـه تتعزز . وفي إطار هـذا الجو النفسي أساس قياده لسائق إهانتهما كليهما ، ولكنـه على الأثر أنـزل بنفسه عقوبة ، وكان بذلك يكرر نموذجاً أولياً قديماً . وحينما تردد طويلاً بعد المناورات ، فما استطاع أن يقرر هل يتعين عليه أن يتابـع طريقه الى فيينا أو يتوقف ليفي بقسمه ، فإنما كان يعبر عن ذينك الصراعين اللذين كانا يعتملان في نفسه منذ زمن بعيد في صورة صراع واحد ، هو الصراع بين طاعته لأبيه ووفائه لسيدة قلبه[٦٥] .

أود أن أضيف كلمة بعد بصدد تأويل مضمون الجزاء : « ... وإلا

(٦٥) ربما كان من المفيد أن نؤكد مرة أخرى على أن طاعة أبيه تتطابق مع عزوفه عن سيدة قلبه . فلو توقف ورد المال الى أ ، لكان بذلك كفَّر إزاء أبيه وتخلى في الوقت نفسه عن صديقته منجذباً بجاذب آخر . وقد انعقد إزاء النصر في هذا الصراع لسيدة قلبـه ، وبالتأكيد ساعدها على ذلك تفكير سوي من جانب المريض .

فإن عقوبة الجرذان ستوقع فيهما كليهما » . فهذا التأويل يرتكز الى النظريتين الطفليتين عن الجنسية اللتين عرضتِ لهما في غير هذا المكان[٦٦] . أولاهما تقول إن الأطفال يخرجون من الشرج ؛ وثانيتهما ـ وهي نتيجة منطقية للأولى ـ تقول إن الرجال يمكنهم كالنساء أن ينجبوا أطفالاً . وبموجب القواعد التقنية لتفسير الأحلام، فإن واقعة الخروج من الشرج يمكن التعبير عنها بنقيضها : الدخول في الشرج (كما في التعذيب بالجرذان) ، والعكس بالعكس .

ليس لنا أن نتوقع حلولاً أبسط من هذه لوساوس بمثل هذه الخطورة ، ولا كذلك حلولاً بطرق أخرى . وطالما اهتدينا الى الحل ، تلاشى عند المريض وسواس الجرذان .

---

(٦٦) انظر فرويد : **حول النظريات الجنسية الطفلية** ، ظهر أولاً في مجلة **حماية الأمهات** ، السنة ٩ ، ١٩٠٨ ، ثم أعيد طبعه في القسم الثاني من **سجموعة من بعض المقالات المقتضبة في الأعصبة** ، المجلد ٧ من **الأعمال الكاملة** (انظر ترجمتنا لهذا المقال في **الحياة الجنسية** ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٨١ . «م») .

(٢)
ملاحظة نظرية

(أ)

بعض الخصائص العامة للتشكيلات الوسواسية[١]

إن التعريف الذي قدمته سنة ١٨٩٦ عن الوساوس ، والذي قلت بموجبه إنها « تبكيتات محرفة ، تعاود ظهورها خارج نطاق الكبت ، ويكون مرجعها على الدوام الى فعل جنسي أتاه الفرد في طفولته بلذة »[٢] ، هذا التعريف يبدو لي اليوم قابلاً للطعن فيه من وجهة نظر الشكل ، وان كان مركّباً من عناصر لا غبار عليها . فقد كان ينزع نزوعاً أقوى مما ينبغي الى التوحيد ، وقد اتخذ نموذجاً له العملية نفسها التي يمارسها العصابيون الوسواسيون حينما يخلطون ، بما يميزهم من ميل الى كل ما هو مبهم وغير مؤكد ، ويجمعون تحت يافطة « الوساوس » أشد التشكيلات النفسية تبايناً[٣] . والواقع أنه قد يكون من الأصح أن

---

(١) إن عدداً من النقاط المعالجة هنا وفي الفقرات التالية قد سبق بيانها في الكتابات المتصلة بالعصاب الوسواسي ، كما نستطيع أن نتبين ذلك في الدراسة الأساسية والمتبحرة التي نشرها لوفنفلد عن هذا العصاب بعنوان : **الظاهرات النفسية الوسواسية** (١٩٠٤) .

(٢) **ملاحظات جديدة حول الأعصبة النفسية الدفاعية** ، الأعمال الكاملة «م» .

(٣) هذا الخطأ في التعريف قد جرى تصحيحه الى حد ما في المقال الآنف الذكر عينه . فقد كتبت فيه أقول : « إن الذكريات المنبعثة والتأنيبات الناجمة عنها لا تتبدى أبداً مع ذلك =

نتكلم عن **تفكير قهري** وأن نبرز الواقعة التالية ، وهي أن التشكيلات **القهرية** يمكن أن تكون لها دلالة الأفعال النفسية الأشد تنوعاً: أمنيات، **إغراءات** ، حفزات ، تفكرات ، شكوك ، أوامر ونواهٍ . ويميل المرضى **إجمالاً** الى طمس الحدود الفاصلة والى تجريد مضمون هذه الأفعال من شحنته الوجدانية وتقديمه في شكل « وساوس » . ويعطي مريضنا مثالاً على ذلك في واحدة من الجلسات الأولى (ص ٥٦) حينما وصف أمنية بعينها بأنها مجرد « ترابط أفكار » .

ينبغي أيضاً أن نقر بأن فينومينولوجيا التفكير القهري بالذات لم تحظ حتى الآن بالتقييم والدراسة الكافيين. ففي أثناء النضال الدفاعي الثانوي الذي يخوض المريض غماره ضد « الوساوس » التي شقت طريقها الى شعوره تتشكل ظاهرات جديرة بتسمية خاصة . ولعل القارىء يذكر ، مثلاً ، سلسلة الأفكار التي شغلت بال مريضنا في أثناء رحلة الإياب من المناورات . فهي لم تكن مجرد اعتبارات منطقية خالصة اعترضت الأفكار الوسواسية وناهضتها ، وإنما كانت بصورة ما مزيجاً من كلا نوعي التفكير: إذ اندمجت بالأفكار الدفاعية بعض مقدمات الوسواس القهري الذي كان عليها أن تقاومه ، وطرحت نفسها (بوساطة المنطق) على صعيد التفكير المرضي . وأعتقد أن ظاهرات كهذه تستأهل اسم **الهذيانات**[٤] .

وسأقدم هنا مثالاً ـ أرجو القارىء أن يدرجه في المكان المرام من

= على حالها هذه في الشعور . فما يغدو شعورياً في صورة وسواس ووجدان قهري ، وما يحتل مكان الذكريات الإمراضية في الحياة الشعورية ، **هي التشكيلات التسووية** المؤلفة من التمثلات الكابتة والتمثلات المكبوتة » . يجدر بنا إذن أن نشدد بوجه خاص في التعريف الآنف الذكر على كلمة « محرفة » .

(٤) نلاحظ هنا أن فرويد يطلق اسم الهذيانات DÉLIRES على ظاهرات نفسية لا تطابق تلك التي يسميها الطب العقلي بهذا الاسم . ولذا كان الأصح أن نقول **هذاءات** . «م»

تاريخ حالة مريضنا ـ من شأنه توضيح هذا التمييز . فحين تعاطى المريض لفترة من الزمن ، في أثناء انكبابه على الدراسة ، تلك الغرابات السلوكية التي أسلفنا وصفها : المذاكرة الى ساعة متأخرة من الليل ، وفتح الباب الخارجي أمام روح والده ، ثم تمليه بعد ذلك أعضاءه التناسلية ، في المرآة (ص ١١٦) ، كان يحاول إسماع نفسه صوت العقل بمساءلته نفسه عما كان يمكن أن يقوله أبوه عن هذا كله لو كان ما يزال حياً حقاً . لكن هذه الحجة لم تؤتِ مفعولها ما دامت متلبسة عنده ذلك الشكل المنطقي ؛ ولم يقلع المريض عن سلوكه الغريب إلا بعد أن أعطى الفكرة نفسها شكل تهديد ذي طابع « هذائي » : فلو أنه عاد مرة أخرى الى مثل تلك الحماقة ، فسيقع مكروه لأبيه في الآخرة .

إن قيمة التمييز ، الذي له بكل تأكيد ما يبرره ، بين النضال الدفاعي الأول والنضال الدفاعي الثانوي ، تتضاءل على نحو غير متوقع متى ما علمنا أن **المرضى يجهلون منطوق وساوسهم**. وقد يبدو هذا ضربا من المفارقة ، ولكنه مفهوم . ذلك أنه في أثناء عملية التحليل النفسي تزداد ، بالفعل ، لا شجاعة المريض فحسب ، بل كذلك شجاعة مرضه إن جاز القول ، فإذا به يأذن لنفسه بتظاهرات أوضح وتعابير أصرح . واذا ما تركنا لغة المجاز هذه ، أمكن لنا أن نقول إن ما يحدث هو في أغلب الظن ما يلي : إن المريض ، الذي كان أشاح الى ذلك الحين برعب عن تظاهراته المَرَضية ، يعيرها الآن انتباهاً ويطفق يتعرفها بوضوح أكبر وعلى نحو أكثر تفصيلاً[٥] .

هذا الى أنه توجد طريقتان خاصتان للوصول الى معرفة أدق

(٥) يغالي بعض المرضى مغالاة مسرفة في عدم الانتباه ، فلا يكاشفون المحلل النفسي بمضمون وساوسهم ، بل يعجزون حتى عن وصف فعل قهري بالرغم من أنهم أدوه مرات لا تحصى .

وأوضح بالتشكيلات القهرية . فنحن نتبين ، أولاً ، أن الأحلام يمكن أن تنطق بالنص الصحيح لأمر قهري ، مع أن هذا الأمر لم يتم تبليغه في اليوم السابق للحلم إلا بصورة محرفة وبتراء ، كما لو في برقية شوهها الإيجاز . ويتجلى نص الوساوس في الأحلام في صورة **عبارات منطوقة** ، خلافاً للقاعدة التي تنص على أن العبارات المنطوقة في الحلم تأتي مباشرة من عبارات نُطق بها في حالة اليقظة[٦] . ونصل ثانياً ، **إذا ما تتبعنا تحليلياً تاريخ حالة المرضى** ، الى الاقتناع بأنه إذا ما تتابعت عدة وساوس الواحد تلو الآخر ، حتى وإن لم تكن متطابقة في فحواها ، فإنها تكون مؤلّفة مع ذلك لوسواس واحد في الواقع . ذلك أن الوسواس اذا ما تم دفعه بنجاح في مرة أولى ، عاد أدراجه في مرة ثانية متنكراً ، بحيث لا يمكن التعرف اليه ، وربما أفلح ، بفضل تنكره تحديداً، في مواجهة النضال الدفاعي بنجع أكبر . بيد أن الشكل الأولي يبقى هو الشكل الحقيقي ، وغالباً ما يقدم لنا دلالته بدون أي قناع . ومتى ما أفلحنا بعد لأي في إيضاح دلالة وسواس مستغلق على الفهم ، يخبرنا المريض في الغالب أن فكرة أو أمنية أو غواية من قبيل تلك التي بلغنا الى إعادة بنائها ، قد ظهرت لديه فعلاً في يوم من الأيام ، قبل ظهور الوسواس ، ولكنها لم تستمر في البقاء . ومن سوء الحظ أننا لو أردنا تقديم أمثلة من تاريخ حالة مريضنا لتطلب منا عرضها إسهاباً مفرط الطول .

إن الفكرة التي نسميها رسمياً بـ « الفكرة الوسواسية » تحتوي على هذا النحو ، في تحريفها عن الفحوى الأصلية ، آثاراً من النضال الدفاعي الأولي . والحال أن التحريف هو تحديداً ما يجعل الوسواس قابلاً للحياة ، إذ يقف الفكر الشعوري من جراء ذلك عاجزاً عن فهمه ،

---

(٦) **تفسير الأحلام** ، الطبعة السابعة ، ص ٢٨٣ .

تماماً كما أن مضمون الحلم الذي هو بدوره نتاج لتسوية ولتحريف يبقى مستغلقاً فهمه على الفكر في حالة اليقظة .

إن عجز الفكر الشعوري هذا عن الفهم يتجلى لا في الوسواس ذاته فحسب ، بل كذلك في تظاهرات النضال الدفاعي الثانوي ، وعلى سبيل المثال في الصيغ الدفاعية . وبوسعي أن أسوق على ذلك مثالين جيدين . فقد كانت الصيغة الدفاعية التي يستخدمها مريضنا هي كلمة ABER[٧] التي كان ينطق بها بسرعة مصحوبة بإشارة شجب واستنكار . ثم أخبرني ABER ذات يوم أن هذه الصيغة تحورت في الآونة الأخيرة ؛ فهو ما عاد يقول **آبر** ABÉR ، وإنما **أبير** ABER . ولما سألته عن سبب هذا التبدل أجاب بأن حرف E الصامت في المقطع الثاني ما عاد يوفر له ذلك الشعور بالأمان ضد تدخل شيء ما غريب ومضاد ، ولهذا أقر قراره على أن ينطق به ممدوداً É . على أنه سرعان ما اتضح أن هذا التفسير ـ وهو في الأصل أسلوب مألوف في العصاب الوسواسي ـ غير دقيق ، وأقصى ما يمكن أن يبلغ اليه هو التبرير العقلاني . أما في الواقع فإن كلمة ABÉR كانت مجانسة لكلمة ABWEHR[٨] ، وهي كلمة دخلت في قاموسه بنتيجة مناقشاتنا النظرية حول التحليل النفسي . وهكذا يكون قد استغل العلاج استغلالاً غير مشروع و « هذائياً » ، تعزيزاً لصيغة دفاعية .

وفي مرة أخرى تكلم عن الكلمة السحرية الرئيسية التي نحتها ليندو عن نفسه الإغواء والتجربة من الأحرف الأولى لجميع صلواته الأكثر نجعاً ؛ بعد أن أضاف اليها لفظ AMEN[٩] كذيل تنتهي به . ولا أستطيع أن أورد هنا هذه الكلمة بعينها لأسباب ستتضح حالاً . وبالفعل ،

---

(٧) أي « لكن ! » . « م »

(٨) أي « الدفاع » وحرف E فيها ينطق ممدوداً . «م»

(٩) أي « آمين » «م»

حين ساررني مريضي بها لاحظت أنها بمثابة تصحيف لاسم حبيبته . وكان اسمها يشتمل على حرف ى ، وقد وضعه قبل AMEN مباشرة . وعلى هذا النحو جعل اسم حبيبته يلاصق ، إن جاز لنا القول ، سائله المنوي[١٠] ؛ وبعبارة أخرى ، لقد كان يستمني وهو يتمثلها في ذهنه . ولم يفطن المريض نفسه الى هذه العلاقة التي كانت ظاهرة جداً للعيان مع ذلك ؛ فدفاعاته تركت المكبوت يخدعها . وهذا في الأصل مثال جيد على القاعدة التي تنص على أن **الشيء الذي يتحتم كبته يتوصل ، مع الزمن ، وبصورة مطردة ، الى النفاذ الى داخل ما يكتبه** .

حين نقول إن الوساوس تتعرض لتحريف مشابه لذاك الذي تتعرض له أفكار الحلم قبل أن تصبح هي المضمون الظاهر للحلم ، فإن اهتمامنا لا يمكن أن ينصب إلا على إوالية هذا التحريف . وما كان لشيء من حيث المبدأ أن يمنعنا من عرض مختلف الكيفيات التي يتم بها هذا التحريف كما تكشف لنا عنها أمثلة الوساوس التي تأتى لنا أن نفهمها وننجز ترجمتها . لكن لا يسعني في إطار هذا النص أن أعطي عن ذلك أكثر من بضع عينات . إن وساوس مريضنا لم تكن كلها مبنية بمثل تلك الطريقة المعقدة والصعبة على الفهم التي بنى بها وسواسه الأكبر عن الجرذان . ففي بعض الوساوس كانت الإوالية المستخدمة بسيطة للغاية ، لا تتعدى التحريف عن طريق الحذف أو الإضمار ، وهذا أسلوب تحسن النكتة استخدامه ، ولكن الغرض منه في الحالة التي نحن بصددها كان توفير وسيلة دفاعية ضد الفهم .

لقد كانت واحدة من أقدم أفكار مريضنا الاستحواذية وأكثرها إيثاراً عنده (وهذا الوسواس كان بمثابة تحذير وإنذار) هي التالية : **إذا تزوجت من السيدة فسيقع لأبي مكروه** (في الآخرة). فإذا أدرجنا الآن الحلقات الوسيطة المحذوفة التي كشف لنا عنها التحليل ، كان

(١٠) السائل المنوي بالألمانية SAMEN . «م»

مؤدى هذه الفكرة كما يلي : لو كان أبي حياً لثار غضبه على مشروعي للزواج من هذه السيدة مثلما كان ثار غضبه في الماضي في مشهد طفولتي ، بحيث كان حنقي سيتفجر من جديد ضده ، فأتمنى له الأذى ، وما كان ثمة مناص من أن ينزل به هذا الأذى بالنظر الى كلية قدرة رغباتي[١١] .

وهاكم حالة أخرى من الحذف الإضماري ، لها بدورها قيمة التحذير أو التحظير الزهدي . فقد كان للمريض ابنة أخت صغيرة لطيفة يحبها حباً جماً . وذات يوم خطرت له هذه الفكرة : « **اذا أبحت لنفسك جماعاً ، فسيقع مكروه لإيلا** (ستموت) » . ولنضف هنا ما حُذف : « في كل جماع ، وحتى مع امرأة غريبة ، لن يكون أمامك مناص من التفكير بأن العلاقات الجنسية في حياتك الزوجية لن تعطيك أبداً طفلاً (عقم حبيبته) ؛ وستأسف لذلك أسفاً شديداً حتى إنك ستحسد أختك على صغيرتها إيلا . ومشاعر الحسد هذه ستتسبب في موت الطفلة »[١٢] .

إن طريقة الحذف الإضماري تبدو في العصاب الوسواسي نمطية . وقد التقيتها في وساوس مرضى آخرين . وكان منها بوجه

(١١) لنا عودة الى كلية القدرة هذه (انظر ص ١٨٣) .

(١٢) بودي أن أمثل على استخدام الاسلوب الإضماري في النكتة ببعض الأمثلة المقتبسة من كتابي : **النكتة وعلاقاتها باللاشعور** ، لايبتزغ وفيينا ، منشورات ف . دونيكة ، ١٩٠٥ ، والمعاد نشره في المجلد ٦ من **الأعمال الكاملة** :« كان في فيينا كاتب هجّاء محب للتطاول ، يدعى **س** ، وكانت لوذعياته القارصة قد عرضته غير مرة للأذى البدني من قبل ضحاياه . وعلى أثر فعلة قبيحة صدرت عن أحد خصومه المعتادين علق شخص ثالث قائلاً : « لو سمع بها **س** ، لتلقى صفعة أخرى » . واللغو الظاهر في هذه العبارة يزول متى استكملناها بما يلي : « فسوف يكتب عندئذ عن خصمه مقالاً شديد الإقذاع، بحيث أنه ... الخ » . وهذه النكتة الإضمارية تنطوي في مضمونها أيضاً على جوانب من الشبه مع المثال الأول الذي أوردناه من وساوس المريض .

خاص حالة شك شفافة للغاية لدى سيدة تعاني أصلاً من أفعال قهرية ، وكانت مثيرة أيضاً للاهتمام بحكم انطوائها على قدر من التشابه مع بنية وسواس الجرذان . ففيما كانت السيدة المذكورة تتجول مع زوجها في نزهة في نورمبورغ ، اصطحبته الى مخزن كانت تريد أن تتبضع منه حوائج شتى لطفلتها ومن بينها مشط . وقد استغرق انتقاء هذه الحوائج وقتاً أطول مما ينبغي ، على حد تقدير الزواج ، فقال إنه يريد أن يذهب ويشتري قطعاً نقدية لمحها وهما في الطريق لدى بائع للعاديات،وبعد أن ينتهي من شرائها سيعود ليصطحب زوجته من المخزن . غير أن الزوجة ارتأت بدورها أن زوجها تغيَّب فترة أطول مما ينبغي . وحينما سألته لدى عودته أين ذهب ، فأكد لها من جديد أنه كان في محل العاديات ، انتابها في اللحظة عينها شك مؤلم ، إذ تساءلت بينها وبين نفسها عما إذا لم يكن المشط الذي ابتاعته تواً لطفلتها موجوداً في حوزتها منذ زمن طويل ، وبديهي أنها عجزت عن كشف دلالة هذا الربط . والواقع أن الشك خضع هنا لعملية نقل ، ومن ثم فإننا نستطيع أن نعيد بناء الفكرة كاملة على النحو التالي : « لو صح أنك ما كنت إلا لدى بائع العاديات ، ولو كان علي أن أصدق ذلك ، ففي وسعي أيضاً في هذه الحال أن أصدق أنني كنت أمتلك منذ سنوات وسنوات هذا المشط الذي اشتريته للتو » . وهذا ضرب من التهكم الساخر يشابه الخاطرة التي اعتملت في ذهن مريضنا : « أجل ، بقدر ما هو صحيح أن أبي والسيدة سينجبان أطفالاً ، فمن المؤكد أيضاً أنني سأرد المال الى أ » . وكان الشك لدى السيدة التي تكلمنا عنها مرتبطاً بغيرة لاشعورية صورت لها أن زوجها انتهز سانحة غيابه عنها ليقوم بزيارة غرامية .

لن أقوم هنا بدراسة سيكولوجية للتفكير الوسواسي . ولكن دراسة كهذه من شأنها أن تمدنا بنتائج ثمينة للغاية ، وقد تكون فائدتها في مجال توضيح معارفنا عن طبيعة الشعور واللاشعور أكبر من فائدة دراسة الهستيريا وظاهرات التنويم المغنطيسي . وإنه لما يرتجى لو أن

الفلاسفة وعلماء النفس الذين يشيدون عن طريق ما يتناهى الى مسامعهم من تقولات ، أو استناداً الى تعاريف اصطلاحية محضة ، نظريات أريبة براقة من اللاشعور ، يبدؤون بدراسة ظاهرات التفكير الوسواسي لينتهوا منها إلى ملاحظات ذات قوة إقناعية . بل إننا لنكاد نطالبهم بذلك وجوباً لولا أن هذه المهمة أعوص بكثير من طرائقهم المألوفة في العمل . وعليه ، سأكتفي هنا بأن أذكر أن الظاهرات النفسية اللاشعورية في العصاب الوسواسي تقتحم أحياناً مجال الشعور في صورتها الأكثر صفاء والأقل تحريفاً ، وأن أي مرحلة من مراحل سيرورة التفكير اللاشعوري يمكن أن تكون منطلقاً لهذا الاقتحام لمضمار الشعور . والى هذا نستطيع أن نتبين أن الوساوس غالباً ما تتكشف ، لحظة ذلك الاقتحام ، عن أنها تشكيلات قديمة العهد . وذلك هو السبب في تلك الظاهرة العجيبة التي تقع تحت ملاحظتنا حين نحاول ، بمعونة المعصوب الوسواسي ، أن نهتدي الى تاريخ الظهور الأول لوسواس من الوساوس ؛ فالمريض يجد نفسه مضطراً على الدوام في هذه الحال إلى الرجوع بأصل هذا الوسواس الى عهد أبعد فأبعد طرداً مع تقدم التحليل ، محاولاً في كل مرة أن يعثر له على علل ظرفية جديدة .

(ب)
بعض الخصائص السيكولوجية للعصابيين الوسواسيين موقفهم من الواقع والطيرة والموت

يتعين علي أن أعالج هنا بعض الخصائص السيكولوجية للعصابيين الوسواسيين ؛ ولئن بدت هذه الخصائص غير مهمة بحد ذاتها ، فإن معرفتها ستفتح لنا الطريق الى مفاهيم أكثر أهمية . وأنا أعلم أن هذه الخصائص ـ وهي شديدة البروز لدى مريضي ـ لا ترجع الى الفرد في ذاته ، وإنما الى مرضه ؛ ومن ثم فإننا نلتقيها ، على نحو

نمطي تماماً ، لدى عصابيين وسواسيين آخرين .

كان مريضنا على درجة عالية من الإيمان بالطيرة ، وهذا على الرغم من أنه كان متعلماً ، مثقفاً ، وثاقب الذكاء ، وعلى الرغم أيضاً من أنه كان يؤكد بين الحين والآخر أنه لا يعتقد بكل ذلك الهراء . وهكذا كان يتميز ، بتطيره وعدم تطيره معاً ، تميزاً جلياً عن المتطيرين من الجَهَلة الذين لا يمكن أن يتزعزع اعتقادهم . وكان يبدو عليه أنه مدرك أن تطيره يرجع الى تفكيره الوسواسي ، وإن كان يستسلم بجماع نفسه أحياناً للإيمان بهذه الأباطيل . وإننا سنقتدر بسهولة أكبر على فهم مثل هذا الموقف المتردد والمتناقض فيما لو أخذنا بوجهة نظر معينة في محاولتنا إيجاد تفسير له . إنني لم أتردد في الافتراض بأن مريضنا كان لديه ـ فيما يتصل بهذه الأمور رأيان مختلفان ومتضادان ، لا رأي واحد لما يتحدد بعد . وكان يتأرجح بين هذين الرأيين ، وكان تأرجحه هذا مرتبطاً على نحو لا لبس فيه بموقفه الآني من اضطراباته الوسواسية بصفة عامة . فما إن يبلغ الى السيطرة على وسواس من وساوسه حتى يهزأ بقدر كبير من الفهم من قابليته الساذجة للتصديق ، ولا يعود شيء بقادرعلى زعزعته . ولكن ما إن يستحوذ عليه من جديد وسواس قهري لم تتم تصفيته بعد ـ أو يصطدم ، والأمر سيان ، بمقاومة ـ حتى تقع له أغرب الأمور ، وكأنما لتساند إيمانه بالأباطيل .

على أن تطيره كان على كل حال تطير إنسان مثقف ، وكان يضرب عرض الحائط بالخرافات السوقية من قبيل الخوف من يوم الجمعة أو الرقم ١٣ الخ . لكنه كان يؤمن بالفأل ، وبأحلام النبوءة ، ويلتقي على الدوام بالأشخاص أنفسهم الذين كانوا خطروا بباله قبل هنيهة دونما سبب ، ويتلقى رسائل من أشخاص استحضرهم في ذاكرته بصورة مفاجئة بعد فترة طويلة من النسيان . على أنه كان على قدر كاف من الاستقامة أو من الأمانة لآرائه الشخصية كيلا ينسى الحالات التي لم تتمخض فيها أشد إرهاصاته ونُذُره إلحاحاً عن أي شيء على الإطلاق،

ومن قبيل ذلك مثلاً أنه حينما كان مرة في طريقه الى المصيف حدثه قلبه حديث اليقين بأنه لن يعود أبداً الى فيينا حياً . وقد أقر أيضاً أن القسم الأكبر من نذره وفؤوله تتصل بأشياء لا أهمية خاصة لها بالنسبة الى شخصه ، وأنه حينما يلتقي مثلاً بشخص من معارفه خطر بباله قبل هنيهة من الزمن بعد أن كان غاب عن ذاكرته سنوات طوالاً ، فإنه لم يكن يحدث شيء بينه وبين هذا الشخص الذي التقاه في مثل تلك الظروف العجيبة . وما كان في مستطاعه بطبيعة الحال أن ينكر أيضاً أن جميع الأحداث المهمة في حياته حدثت بدون أن يصحبها نذير مسبق : ومن ذلك مثلاً أن أباه مات على غير انتظار منه . لكن جميع هذه الحجج ما كانت تغير شيئاً في ازدواجية معتقداته ، ولا تكشف إلا عن الطابع الوسواسي لتطيره ، هذا الطابع الذي كان يمكن استنتاجه على كل حال من التزامن بين تأرجحه في معتقداته وبين تذبذب المقاومة لديه .

وبطبيعة الحال لم اكن في وضع يمكنني من جلاء أمر جميع القصص العجائبية المتصلة بماضي مريضي من وجهة نظر عقلانية ، لكني استطعت ، فيما يتعلق بتلك التي وقعت في أثناء العلاج ، أن أثبت له أنه كانت له هو نفسه على الدوام يد في ابتداع تلك المعجزات ، وأن أبين له الوسائل التي كان يستخدمها لهذا الغرض . فقد كان يعتمد في ذلك على الرؤية والقراءة اللامباشرتين ، وعلى النسيان ، وعلى الأخص على مغالطات الذاكرة . وفي النهاية راح يساعدني هو نفسه على كشف سر هذه الشعبذات التي بفضلها كان يحقق معجزاته . وقد حضرته ذات يوم ذكرى على جانب من الأهمية بالنظر الى أنها كشفت عن الجذر الطفلي لإيمانه بواقعية نذره ونبوءاته ، وذلك عندما تذكَّر أن أمه كانت تقول كلما اقتضى الأمر تحديد تاريخ أو ميعاد : « في هذا اليوم أو ذاك لن أستطيع ، لأنني سأكون طريحة الفراش » . وبالفعل ، كانت تلازم الفراش في اليوم الموعود !

كانت تساوره حاجة بلا أدنى شك الى أن يجد في هذا النوع من الأحداث نقاط استناد لإيمانه بالطيرة ؛ ولهذا كان يعير انتباهاً كبيراً للمصادفات الكثيرة التي لا تفسير لها التي تعج بها الحياة اليومية، وكان بنشاطه اللاشعوري يساعد المصادفة حيثما تكون غير كافية. وقد وجدت نظير هذه الحاجة لدى العديد من العصابيين الوسواسيين، وإني لأفترض وجودها لدى غالبيتهم. وقد تهيأ لي أن هذه الحاجة قابلة للتفسير بالخصائص السيكولوجية للعصاب الوسواسي. وكما تقدم بي بيان ذلك (ص ٩٦)، فإن الكبت في هذا المرض لا يتم عن طريق النساية، بل عن طريق تقطيع علاقات السببية، وهذا التقطيع هو نفسه نتيجة لسحب الوجدان. وتحتفظ هذه العلاقات المكبوتة بنوع من القوة القادرة على إخطار الفرد (كنت قد قارنت هذه القوة في غير هذا المكان بإدراك نفسي داخلي المنشأ)[١٣]، بحيث أن المريض يقحم العلاقات المكبوتة على الواقع الخارجي عن طريق الإسقاط، فتنتصب هناك شاهداً على ما جرى استبعاده من الحياة النفسية.

ثمة حاجة نفسية مشتركة أخرى بين العصابيين الوسواسيين تمت بصلة قربى الى الحاجة التي تكلمنا عنها تواً، ومن شأنها فيما لو تابعنا دراستها أن تمضي بنا بعيداً في تقصي الدوافع الغريزية، وهي الحاجة الى **اللايقين** في الحياة أو الحاجة الى **الشك**. فاستحداث «اللايقين» هو واحد من الأساليب التي يصطنعها العصاب ليسحب المريض من **الواقع** وليعزله عن العالم الخارجي، وهذا في الحقيقة نزوع مشترك بين الاضطرابات العصابية النفسية كافة. ومن الواضح الى أقصى حد هنا أيضاً أن هؤلاء المرضى يسعون الى تحاشي اليقين والى البقاء في الشك. ويجد هذا النزوع لدى بعضهم تعبيراً حياً في

---

(١٣) **علم النفس المرضي للحياة اليومية**، منشورات س. كراغر، برلين ١٩٠٤، المجلد ٤ من **الأعمال الكاملة**.

نفورهم من الساعات لأنها تتكلف بضبط الوقت بدقة ؛ وبفضل أحابيلهم اللاشعورية يهتدون الى طريقة لإبطال فاعلية جميع هذه الأدوات المبدِّدة للشك. وكان مريضنا يدلل على براعة خاصة في تفادي الاطلاع على كل ما من شأنه أن يحمله على إبرام قرار في صراعاته. وهكذا كان يجهل من شؤون حبيبته حتى تلك التي تتصل منها مباشرة بزواجه، فكان يقول إنه لا يعرف من أجرى لها العملية، وهل جرى استئصال مبيضي واحد أو المبيضين كليهما في هذه العملية. وقد كان علي أن أقسره على تذكر ما نسيه وعلى الاستعلام عما يجهله.

إن إيثار العصابيين الوسواسيين المسبق للشك واللايقين يغدو لديهم دافعاً الى توجيه أفكارهم نحو موضوعات يحيط بها عدم اليقين بالنسبة الى البشر كافة، موضوعات يتحتم أن تبقى معارفنا وأحكامنا فيما يتصل بها أسيرة الشك وجوباً. وتدور هذه الموضوعات في المقام الأول حول الأبوة، وأجل الحياة، والحياة بعد الموت، والذاكرة التي نضع في العادة ثقتنا فيها بدون أن يكون لدينا أدنى ضمانة لأمانتها[١٤].

يستخدم العصابي الوسواسي على نطاق واسع لايقين ذاكرته

---

(١٤) يقول ليختنبرغ LICHTENBERG: «يعرف عالم الفلك من هو أبوه بدرجة من اليقين تعادل تقريباً يقين معرفته بأن القمر مأهول أم لا، ولكنه يعرف بدرجة أعلى بكثير من اليقين من هي أمه». ولقد قطعت الحضارة شوطاً كبيراً على طريق التقدم حين قر قرار الانسانية على الأخذ بشهادة الاستنتاج المنطقي، الى جانب شهادة الحواس، وعلى الانتقال من النظام الأمومي الى النظام الأبويّ. وثمة تماثيل صغيرة من زمن ما قبل التاريخ، تمثل شكلاً انسانياً صغيراً جالساً فوق رأس شكل إنساني أكبر، ترمز الى السلالة الأبوية. والإلهة أثينا التي لا أم لها خرجت من دماغ جوبيتر. والى اليوم أيضاً لا يزال الشاهد الذي يشهد على شيء ما في المحكمة يقال له بلغتنا ZEUGE، وهو اسم مستمد من الجزء المذكر في عملية الإنجاب، وكذلك كان الشاهد قديماً يُمثَّل في الكتابة الهيروغليفية بالعضو التناسلي المذكر.

في تشكيل أعراضه . وسوف نرى عما قليل ما الدور الذي تلعبه في فكر هؤلاء المرضى مسألة طول العمر والحياة في الآخرة . لكن قبل أن اتابع عرضي أود أن أناقش بعد سمة خاصة من سمات الإيمان بالطيرة لدى مريضنا ، وهي سمة لا بد أن تكون أدهشت أكثر من قارىء واحد حيث سبقت لي الاشارة اليها (ص ١٦٧) .

أقصد هنا **كلية القدرة** التي كان يعزوها الى أفكاره ومشاعره والأماني الخيِّرة أو الشريرة التي يمكن أن يتمناها . وقد نميل هنا بكل تأكيد الى القول بأن الأمر هو مجرد هذاء ، وان هذا الهذاء يتخطى حدود العصاب الوسواسي . لكنني التقيت هذا الاقتناع عينه لدى عصابي وسواسي آخر ، شفي منذ عهد بعيد وهو الآن يمارس نشاطاً سوياً ؛ والواقع أن العصابيين الوسواسيين يسلكون جميعهم سلوك من يشارك في هذا الاقتناع . ولهذا يتعين علينا أن نحاول استجلاء سر هذه المبالغة في التقييم الذاتي . ولنسلم للحال ، بدون لف او دوران ، بأن هذا الاعتقاد ينطوي على قدر لا يستهان به من هذاء العظمة[١٥] الطفلي ، ولنسائل مريضنا لنعرف ما الأساس الذي ينهض عليه اقتناعه هذا . وقد أجابنا مشيراً الى واقعتين في حياته . فعندما دخل للمرة الثانية الى مصحة التداوي بالمياه ، حيث أصاب مرضه تحسناً للمرة الأولى واليتيمة في حياته ، طلب أن ينزل في الغرفة عينها التي كانت يسرت له ، بفضل موقعها ، العلاقة التي أقامها مع إحدى الممرضات . فجاءه الجواب بأن هذه الغرفة مشغولة من قبل أستاذ طاعن في السن . فكان رد فعله على هذا النبأ ، الذي قلص الى حد كبير حظوظه في نجع العلاج ، بهذه الكلمات غير الودية: « آه ، فليمت بالسكتة ! » . وبعد أسبوعين من ذلك استيقظ ليلاً ، وقد بلبلته

(١٥) أي الميغالومانيا . وقد ترجمها بعضهم بالنفاج ، وآخرون بالعظام . «م»

فكرة جثة ، وفي الصباح علم أن الاستاذ المسن قد قضى بالفعل بسكتة دماغية ، وأن جثته حملت الى غرفته في الوقت نفسه تقريباً الذي أفاق فيه مريضنا من نومه مضطرباً . أما الواقعة الثانية فذات صلة بآنسة متقدمة في السن ، تعيش منفردة ، ويساورها توق عظيم الى أن تُحَبّ ، وكانت قد أبدت نحوه تودداً كثيراً ، بل سألته ذات مرة مباشرة عما إذا لم يكن يشعر نحوها بعاطفة ما . فأجابها جواباً مراوغاً ؛ ولم تمض بضعة أيام على ذلك حتى علم ان الآنسة المشار اليها ألقت بنفسها مزالنافذة. وعندئذ انهال على ذاته بالتأنيب وقال لنفسه إنه كان في استطاعته أن ينقذها من الموت لو منحها حبه . وعلى هذا النحو توطد اقتناعه بكلية قدرة حبه وكرهه . وبدون أن ننكر كلية قدرة الحب نريد مع ذلك أن نشير الى أن الواقعتين كلتيهما انتهتا بالموت ، وسوف نأخذ بالتفسير الذي يفرض نفسه هنا ، وهو أن مريضنا ، مثله في ذلك مثل غيره من العصابيين الوسواسيين ، مرغم على المغالاة في تأثير مشاعره العدائية على العالم الخارجي ، لأنه يجهل شعورياً جانباً كبيراً من الفعل النفسي الداخلي لهذه المشاعر . فحبه ـ أو بالأحرى كرهه ـ هو حقاً كلي القدرة : فهاتان العاطفتان هما بالتحديد اللتان تنتجان الوساوس التي لا يدرك أصلها والتي يحاول بلا جدوى أن يذود شرها عنه[١٦] .

كان لمريضنا موقف بالغ الخصوصية من الموت . فقد كان يشارك بحرارة في كل مأتم ، ويشترك بكل ورع في الجنازات ، حتى صار لقبه بين أفراد أسرته « غراب البين »[١٧] ؛ وكان في خياله لا

(١٦) (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣) ، لقد اتضح منذئذ أن كلية قدرة الأفكار ، أو بتعبير أدق كلية قدرة الأمنيات تؤلف جزءاً جوهرياً من النفسية البدائية . انظر **الطوطم والحرام** ، فيينا ، منشورات هيغو هلّر وشركاه ، ١٩١٢ ـ ١٩١٣ ، المجلد التاسع من **الأعمال الكاملة** (انظر ترجمتنا الصادرة عن دار الطليعة ، بيروت ١٩٨٣ . «م») .

(١٧) حرفياً بالألمانية : طائر الجيف . «م»

يتوقف عن قتل الناس كيما يتمكن من الإعراب عن تعاطفه الصادق مع أهل الفقيد . وكانت وفاة أخت أكبر منه ، وكان له آنئذ من العمر ثلاث سنوات أو اربع ، تلعب دوراً كبيراً في تخييلاتـه ، وقد تكشفت هـذه الوفاة عن أنها وثيقة الصلة بالسيئات الطفلية الطفيفة التي اقترفها في ذلك العمر . ونحن نعلم أيضاً كم شغل موت أبيه أفكاره في سن مبكرة ، بل بوسعنا أن نعد مرضه استجـابة لتمنيـه القهري لهـذا الموت قبـل خمسة عشر عاماً . ولم يكن هذا الامتداد العجيب لمخاوفه الاستحواذية الى « العالم الآخر » إلا تعويضاً عن تمنيه موت أبيه . وقد كـان ظهور هذه الحالة لديه على أثر انبعاث حزنه على موت أبيه بعد عـام ونصف عام من وفاته ، وكان الغرض من هذه الحالة إنكار واقعة هذا المـوت ، وكأنه لم يكن ؛ وهذا ما كان حاوله بالفعل . من قبل في تخييلات شتى له . وقد تعلمنا أن نترجم في عدة مناسبات (انـظر ص ١٥٨ ، ١٦٧) عبارة « العالم الآخر » بعبارة : « لو كان أبي لا يزال حياً » .

على أن سلوك عصابيين وسواسيين آخـرين يكاد لا يختلف عن سلوك مريضنا ، وإن لم يضعهم القدر في مواجهة الموت في مثـل تلك السن المبكـرة . فهم دائماً مشغـولون بـطول عمـر أشخـاص آخـرين وباحتمالات موتهم ؛ ولا يكون لنزعاتهم التطيريـة في بادىء الأمـر من مضمون آخر غير هذا المضمون ، وقد لا يكون لها أيضاً من مصدر آخر غير هذا المصدر . فأول ما يحتاجون اليه هو احتمال الموت ليهتدوا الى حل لصراعاتهم . وإحدى السمات الأساسية في طباعهم هي العجز عن اتخاذ قرار ، وعلى الأخص في أمور الحب ؛ لذا تراهم يحاولون إرجاء كل قرار ؛ وهم بتـرددهم في اختيار الأشخـاص أو التدابيـر الواجب اتخاذها يحاكون المحكمة الأمبراطوريـة الالمانيـة القديمـة التي كانت دعـاويهـا تنتهي إجمـالاً ، قبـل إصـدار الحكم ، بمـوت الطرفـين المتقاضيين . هكذا يترصد العصابيون الوسـواسيون ، كلمـا واجههم صراع حيوي ، موت شخص يهمهم أمره ، وفي العادة شخص يقع من

أنفسهم موقع الحب ، سـواء أكان واحـداً من والديهم ، أم غريمـاً من غرمائهم ، أم موضوعاً من موضوعاتهم الحبيبة التي ما يزالون يترددون في الاختيـار بينها . وبـدراستنا لعقـدة المـوت في حـالات العصـاب الوسواسي نطرق مشكلة الحيـاة الغريـزية للعصـابيين الوسواسيين ، وهي المشكلة التي ستحظى الآن باهتمامنا .

(جـ)
الحياة الغريزية وأصل القهر والشك

إذا أردنـا أن نتعرف القـوى النفسية التي أدى تصـادمهـا الى تشكيل هذا العصاب الوسواسي ، فعلينا أن نرجع القهقرى إلى ما كنا عرفناه عند مريضنا عن أسباب مرضه في سن رشده وفي طفولته . فقد تفجر المرض عنده حين واجه ، وهـو في العشرين من العمـر ، إغراء الزواج من فتاة هي غير التي كان يحبها منذ وقت طويل ؛ وقد تملص من وجوب حسم هذا الصراع بإرجائه الى زمن لاحق كـل ما كـان يتوجب عليه فعله تمهيداً لحل الصراع ؛ والعصاب هو الذي أمده بوسائل هذا التهرب . ومن الممكن إرجاع تردده من بين صديقتـه والفتاة الأخـرى الى الصراع بين تأثير أبيه وحبـه للسيدة ، وبـالتالي الى صـراع في الاختيار بين أبيه وبين موضوع جنسي ، وهـو صراع كـان قائمـاً من الأساس في طفولته الأولى بحسب ما يستبان من ذكرياته ووسـاوسه . ومن الواضح ، فضلاً عن ذلك ، أن نفسه كانت مسرحاً للصراع ، على امتـداد حياتـه ، بين الحب والكره ، سـواء بالنسبـة الى صديقتـه أم بالنسبة الى أبيه . وتقف تخييلاته الانتقاميـة وأفعاله القهـرية ، كقهـر الفهم أو قصة الحجر المرمي في الطريق ، شاهـداً على هذا الصـراع الذي كان الى حد ما مفهوماً وطبيعياً بالنظر الى أن صديقته هيأت بعض الدوافع لمشاعره العدائية برفضها الأول في بادىء الأمر ، ثم بفتورها بعد ذلك . لكن هذا التناقض في عواطفه الغالبة كان يحكم أيضاً علاقته

بأبيه ، كما تبين لنا من ترجمة وساوسه ، ولا بد أن أباه هيأ له هو الآخر دوافع للعدائية في طفولته ، كما تسنى لنا أن نتحقق من ذلك بيقين شبه قاطع . وكانت مشاعره نحو صديقته - وهي مزيج من المحبة والكراهية - تدخل الى حد كبير ضمن نطاق معرفته الشعورية . وأقصى ما أمكن له أن يخطىء فيه هو تقديره لدرجة مشاعره السلبية وتعبيرها . وبالمقابل فإن عدائيته نحو أبيه ، وكانت فيما سلف بالغة الشدة ، أفلتت منذ زمن بعيد من إدراكه وما أمكن ردها الى الشعور إلا عبر مقاومات بالغة العنف . وهذا الكبت للكراهية الطفلية نحو أبيه هو في تقديرنا السيرورة التي دفعت بجميع الصراعات اللاحقة في حياته نحو العصاب .

إن الصراعات الوجدانية التي عددناها الواحد تلو الآخر عند مريضنا لم تكن مع ذلك مستقلة بعضها عن بعض ، بل كانت ملتحمة في أزواج . فكرهه لصديقته كان يرتبط بتعلقه بأبيه ، والعكس بالعكس . لكن التيارين الصراعيين ، اللذين يبقيان قائمين بعد هذا التبسيط ، وأعني بهما التضاد بين الأب والصديقة والتناقض بين الحب والكره في كل حالة من الحالات ، لا ارتباط بينهما على الإطلاق ، لا من حيث المضمون ولا من حيث التكوين . فأول هذين الصراعين يناظر التأرجح الطبيعي بين الرجل والمرأة ، من حيث هما موضوعان للحب ، ذلك التأرجح الذي يُزج بالطفل فيه بتوجيه السؤال المعهود اليه : « من تحب أكثر ، البابا أو الماما » ... وهو التأرجح الذي يلازمه فيما بعد على مدى حياته ، على الرغم من كل الفوارق الفردية في شدة المشاعر الوجدانية حيال الجنسين وفي تثبيت الأهداف الجنسية النهائية . غير أن هذا التضاد سرعان ما يفقد في الحالات السوية طابعه التناقضي الصارخ كاختيار إلزامي لا مناص منه بين طرف أو آخر ؛ إذ يتخلق هامش لإشباع المطالب اللامتعادلة لكلا الجانبين ، وهذا على الرغم من أن تدني قيمة أفراد أحد الجنسين يقترن على الدوام لدى الانسان

السوي بتقدير موازٍ أعلى لأفراد الجنس الآخر .

أما الصراع الثاني ، ونعني به الصراع بين الحب والكره ، فأعظم إثارة لدهشتنا . ونحن نعلم أن الحالة الحبية تأخذ طريقها الى الإدراك في بادىء الأمر في صورة كره في كثير من الأحيان ، إذ أن الحب الذي يُضن عليه بالإشباع ينقلب بسهولة وبصورة جزئية الى كره ، ويعلمنا الشعراء أن هاتين العاطفتين المتناقضتين يمكن أن تتعايشا معاً فترة من الزمن في حالة من التنافس ، إن جاز القول ، في الأطوار المشبوبة من الحب . أما التعايش المزمن بين الحب والكره حيال شخص واحد ، والشدة البالغة لهاتين العاطفتين ، فهذا خليق حقاً بأن يثير دهشتنا . فقد كان لنا أن نتوقع أن يتغلب الحب المشبوب على الكراهية مذ زمن بعيد ، أو أن تتمكن هذه الكراهية المضطرمة من اجتياحه هو نفسه . والواقع أن هذا التعايش بين عواطف متناقضة غير ممكن إلا في ظل شروط سيكولوجية خاصة ، وبفضل طابعها اللاشعوري . فالحب لم يخمد شعلة الكراهية ، بل أفلح فقط في دفعها نحو اللاشعور ، حيث أمكن لها ، وقد باتت في مأمن من التدمير بفعل تدخل الشعور ، أن تستمر في البقاء ، بل أن تنمو . وفي العادة تتعاظم شدة الحب الشعوري تعاظماً شديداً في هذه الشروط ، من قبيل رد الفعل ، ليكون أهلاً للاضطلاع بالمهمة الملقاة باستمرار على عاتقه : ألا وهي الإبقاء على نقيضه رهن الكبت . ويبدو أن شرط قيام هذه « الوضعية » الغريبة للغاية في الحياة الحبية هو انفصال الضدين في زمن مبكر للغاية ، وتحديداً في الطور « ما قبل التاريخي» من الطفولة ،

(١٨) انظر النقاش بصدد هذه النقطة في واحدة من الجلسات الأولى . (ملحوظة أضيفت سنة ١٩٢٣) - نحت بلولر BLEULER في وقت لاحق مصطلحاً مناسباً للتعبير عن هذه الوضعية العاطفية هو « الازدواجية الوجدانية » AMBIVALEN CE . انظر تتمة هذه التأملات في مقالي : **الاستعداد المسبق للعصاب الوسواسي** ، ١٩١٣ .

واقتران هذا الانفصال بكبت إحدى العاطفتين ، وفي الغالب الكراهية .

لو ألقينا نظرة شاملة على عدد من تحاليل العصابيين الوسواسيين ، لما وجدنا بدأً من الافتراض أن السلوك المحكوم بالحب والكره معاً ، كسلوك مريضنا ، هو واحدة من أكثر الخاصيات تواتراً ومن أشدها بروزاً ، وربما لهذا السبب بالذات من أعظمها أهمية ، للعصاب الوسواسي . ولكن مهما يكن كبيراً الإغراء الذي يساورنا بإرجاع مشكلة « اختيار العصاب » الى الحياة الغريزية ، فإن لدينا بالمقابل قدراً كافياً من الأسباب للإفلات من هذا الإغراء ، لأنه في مستطاعنا أن نقول لأنفسنا إننا نلتقي في جميع الأعصبة الغرائز المكبوتة عينها في أساس الأعراض . وهكذا فإن الكراهية ، التي يبقيها الحب حبيسة اللاشعور ، تلعب أيضاً دوراً كبيراً في توليد المرضى في الهستيريا والبارانويا . وما نعرفه عن طبيعة الحب أقل من أن يسمح لنا بأن نصدر من الآن حكماً اكيداً ؛ ولا سيما أن علاقة العامل **السلبي**[١٩] في الحب بالمقوِّم السادي من الليبيدو ما تزال مبهمة كل الإبهام . ولهذا لا نعزو إلا قيمة معرفة مؤقتة الى الفرضية التي نقول بموجبها إن المقوِّمات السادية للحب ، في الحالات المشار اليها من الكراهية اللاشعورية ، كانت قد نمت ، لأسباب تتعلق بالجبلَّة ، نمواً فائق القوة ، مما أوجب بالتالي لجمها وكبحها على نحو مجاوز الحد تبكيراً وشدةً . وبوسعنا أن نستنتج من ذلك أن الظاهرات العصابية تتحدد في مثل هذه الحال ، من جهة أولى ، بالمحبة الشعورية التي تعززت من جراء رد الفعل ، ومن الجهة الثانية ، بالسادية التي تتظاهر في صورة كراهية في اللاشعور .

---

(١٩) يقول القيبيادس عن سقراط في **المادبة** : « ... كثيراً ما تمنيت لو أني لا أعود أراه بين الأحياء . ومع ذلك فإنني أعرف انه لو حدث ذلك فإن تعاستي به ستكون أعظم بكثير ، لأنني عديم الحيلة ، مشلول الإرادة إزاءه الى حد لا يتصور .

لكن كائناً ما كان التفسير الذي نعطيه لتلك « الوضعية » العجيبة الجامعة بين الحب والكره ، فإن وجودها يرقى فوق كل شك بالاستناد الى الملاحظات التي أجريناها على مرضانا ؛ ثم إنه يغدو ميسوراً علينا أن نفهم ظاهرات العصاب الوسواسي الشديدة الإلغاز متى ما أرجعناها الى هذا العامل وحده . فلئن نهض حب مشبوب في وجه كراهية تكاد لا تقل عنه قوة ، فإن النتيجة المباشرة لوضع كهذا لا بد أن تكون شللاً جزئياً للإرادة ، وعجزاً عن الانتهاء إلى قرار في جميع الأعمال التي يفترض بالحب أن يكون الدافع الفعال اليها . لكن هذا « اللاتقرير » لا يبقى مقتصراً لأمد طويل من الزمن على فئة بعينها من الأفعال . إذ ما هي ، أولاً ، الأفعال التي تصدر عن عاشق ولا تكون على علاقة بهواه ؟ وثانياً ، لأن السلوك الجنسي للانسان ينطوي على **قوة تعيينية** تتقولب بموجبها بقية أفعاله وأعماله . وثالثاً وأخيراً ، لأن من الخصائص السيكولوجية للعصاب الوسواسي أن يستخدم على نطاق واسع إوالية **النقل** . وهكذا يمتد شلل القدرة على التقرير رويداً رويداً الى كل نشاط الإنسان .

على هذا الأساس ينهض سلطان **الشك والقهر** ، كما يتجلى لنا في الحياة النفسية للعصابيين الوسواسيين . فالشك يناظر الإدراك الداخلي لعجز المريض عن التقرير كلما عقد النية على فعل أمر من الأمور ، من جراء كف الكراهية للحب . فالشك هو في الواقع شك في الحب ، هذا الحب الذي يفترض فيه أن يكون من وجهة النظر الذاتية الشيء الأكثر يقينية ؛ ثم ينسحب الشك على كل شيء آخر ، وينتقل بالأفضلية إلى أتفه التفاصيل[٢٠] . ومن يشك في حبه حقّ له أن يشك ،

---

(٢٠) انظر « التمثيل بشيء تافه » كأسلوب من أساليب التنكيت في فرويد : **النكتة وعلاقاتها باللاشعور** ، الطبعة الرابعة ، ص ٦٥ .

بل تحتم عليه أن يشك في كل شيء آخر هو دون الحب قيمة[٢١] .

إن هذا الشك عينه هو الذي يفضي ، فى التدابير الدفاعية ، إلى عدم اليقين وإلى التكرار المتواصل الذي يرمي إلى الخلاص من عدم اليقين هذا ؛ وهذا الشك هو الذي يتوصل أخيراً إلى أن يجعل هذه الأفعال الدفاعية نفسها غير قابلة للتنفيذ مثلها في ذلك مثل قرار الحب المكفوف من الأصل . وقد كنت وجدتني مضطراً في بداية تحرياتي إلى افتراض وجود أصل آخر أكثر عمومية لعدم اليقين لدى العصابيين الوسواسيين ، أصل يبدو أقرب إلى المعيار العادي . فلئن ضايقني أحدهم وأنا أكتب رسالة ، مثلاً ، فإنني أشعر على الأثر بعدم يقين مبرر بصدد ما كتبته وأنا تحت تأثير هذه المضايقة ، وأضطر من ثم إلى معاودة قراءة الرسالة ليطمئن قلبي . وهكذا ارتأيت يومئذ أن عدم اليقين عند العصابيين الوسواسيين في أثناء تلاوتهم صلواتهم مثلاً ، ناشيء عن اندساس متواصل لتخييلات لاشعورية فيها ، مما يضايقهم ويربكهم . وكان هذا الافتراض صحيحاً ، وهو قابل للتوفيق في يسر مع رأينا السابق . ولكن إن صح أن عدم اليقين من تنفيذ إجراء دفاعي يرجع إلى البلبلة التي أحدثتها التخييلات اللاشعورية ، فإن هذه التخييلات تشتمل على وجه التحديد على الحفزة المضادة التي كانت الصلاة ترمي أصلاً إلى استبعادها . ولقد اتضح هذا بجلاء كبير في أحد الأيام لدى مريضنا ، إذ أن البلبلة لم تبقَ لاشعورية ، بل شفَّت عن نفسها بمنتهى الوضوح . فعلى حين كانت بغيته أن يصلي ويقول :

---

(٢١) ابيات الحب الموجهة من هاملت الى اوفيليا :

فلتشكي في أن تكون النجوم من لهب
لتشكي في أن الشمس تدور
لتشكي في أن الحقيقة هي الحقيقة
لكن لا تشكي ابداً في حبي !
هاملت الفصل ٢ ـ المشهد ٢ .

« يحفظها اللّه » ، بزغت على حين غرة في لاشعوره كلمة « لا » مستبقة دعاءه ، وفطن إلى أن ذلك بداية لاستنزال لعنة عليها (ص ٩٠) . ولو أن كلمة « لا » هذه بقيت خرساء ، لكان المريض وجد نفسه في حالة من عدم اليقين ، ولكانت صلاته امتدت إلى ما لانهاية ؛ لكنه أمسك في الواقع عن الصلاة لما غدت تلك الـ « لا » لا شعورية بالنسبة إليه . على أنه قبل أن يتوقف عنها جرَّب، كغيره من العصابيين الوسواسيين، طرائق شتى للحؤول دون اندساس الفكرة المضادة في صلواته ؛ ومن ذلك أنه راح يختصر هذه الصلوات أو ينطق بها بمنتهى السرعة . ويحاول آخرون أن « يعزلوا » بعناية أفعالهم الدفاعية عن كل ما عداها . لكن ما من طريقة من هذه الطرائق تجدي فتيلاً في نهاية المطاف ؛ فما أن تفلح حفزة الحب في تحقيق أدنى نجاح عن طريق انتقالها إلى فعل تافه ، حتى تتبعها الحفزة العدائية للحال وتمحو كل ما فعلته .

حينما يكتشف العصابي الوسواسي عدم يقين ذاكرته ـ نقطة الضعف في بنيتنا النفسية ـ يصير في متاحه ، بفضل عدم اليقين هذا ، أن يسحب شكه على كل شيء ، حتى على الأفعال التي سبق له إنجازها والتي لم تكن لها إلى ذلك الحين أية صلة بعقدة الحب ـ الكره ، وبالاختصار ، على ماضيه برمته . وإني لأذكِّر هنا بمثل المرأة التي كانت ابتاعت لتوها مشطاً لابنتها الصغيرة ، والتي بعد أن ارتابت في وفاء زوجها راحت تتساءل عما إذا لم يكن هذا المشط في حوزتها منذ زمن طويل . ألم تكن هذه المرأة تقول : « إذا كنت أستطيع أن أشك في حبك (ولم يكن ذلك إلّا إسقاطاً لشكها في حَبها هي نفسها لزوجها) ، فبوسعي أيضاً أن أشك في ذلك ، بل بوسعي أن أشك في كل شيء » . وعلى هذا النحو تكون قد كشفت لنا عن المعنى الخبيء للشك العصابي .

أما القهر بالمقابل فيحاول التعويض عن الشك وتصحيح حالات الكف التي لا تطاق والتي ينتصب الشك شاهداً عليها . وإذا ما أفلح

المريض أخيراً ، بمعونة النقل ، في أن يحزم أمره ويبرم واحداً من مقاصده المكفوفة ، تحتم عليه أن يضعه موضع تنفيذ ، صحيح أن قراره هذا ليس هو مقصده الأصلي ، لكن الطاقة التي كانت تراكمت في هذا الأخير لن تفوِّت فرصة تفريغ نفسها في الفعل البديل . وهي تفسح عن نفسها في أوامر ونواهٍ ، تبعاً لكون حفزة الحب أو حفزة الكره هي التي شقت الطريق إلى التفريغ . وإن لم يوضع الأمر القهري موضع التنفيذ بلغ التوتر حداً لا يطاق واستشعره المريض في صورة قلق بالغ الشدة . ولكن الطريق المفضية إلى هذا الفعل البديل ، حتى حين ينصبّ النقل على جانب تفصيلي تافه ، تكون موضع تنازع مرير ، فيتعذر في غالب الأحيان أن يرى الفعل البديل النور إلّا في صورة إجراء دفاعي وثيق الارتباط بالحفزة التي كان مطلوباً تفاديها .

أضف إلى ذلك أن الأفعال التمهيدية يمكن ، عن طريق ضرب من **النكوص** ، أن تحل محل القرارات النهائية ، فينوب الفكر مناب العمل ، وبدلاً من الفعل البديل تبزغ بقوة قهرية خاطرة من الخواطر على سبيل التمهيد للفعل . وتبعاً لدرجة هذا النكوص من الفعل إلى الفكر ، يتخذ العصاب الوسواسي طابع التفكير القهري (الوساوس) أو طابع الفعل القهري بحصر معنى الكلمة . غير أن الأفعال القهرية الحقيقية لا تغدو ممكنة إلّا بفضل ضرب من المصالحة في إطارها بين حفزتين متضادتين في صورة تشكيل توفيقي . وكلما طال أمد العصاب اقتربت الأفعال القهرية أكثر فأكثر من الأفعال الجنسية الطفلية من النوع الاستمنائي . وبهذه الصورة يتم إنجاز أفعال حبية حتى في هذا النوع من العصاب ، ولكن فقط بمعونة نكوص جديد ، أي ليس عن طريق أفعال متجهة نحو أشخاص كموضوع للحب أو للكره ، وإنما عن طريق أفعال إيروسية ذاتية كما في الطفولة .

والنكوص الأول ، أي النكوص من الفعل إلى الفكر ، ييسره عامل آخر له دوره في تكوين العصاب . فتاريخ العصابيين الوسواسيين

يكشف بصورة شبه قياسية عن بزوغ وكبت مبكرين للتلصصية والاستطلاعية الجنسية اللتين وجهتا ، لدى مريضنا أيضاً ، شطراً من نشاطه الجنسي الطفلي[٢٢] .

لقد أسلفنا الإشارة إلى أهمية المقوِّم السادي في تكوين العصاب الوسواسي. وحيثما تكن الدوافع إلى الاستطلاع الجنسي راجحة الكفة في جبلّة العصابيين الوسواسيين ، يغدُ الاجترار الذهني العرض الرئيسي للعصاب . بل إن عملية التفكير بالذات تتجنس : فاللذة الجنسية ، التي ترتبط في العادة بمضمون التفكير ، تنصب الآن على عملية التفكير ذاتها ، والرضى الذي يخامر المريض ببلوغه إلى نتيجة معرفية محددة يستشعره في الواقع ضرباً من الإشباع الجنسي . وهذه العلاقة بين **الدافع إلى المعرفة** وبين العمليات التفكيرية تؤهل بصيغة خاصة هذا الدافع ، في جميع أشكال العصاب الوسواسي التي يلعب فيها دوراً ، لأن يجتذب الطاقة ، التي تجاهد عبثاً للتعبير عن نفسها في الفعل ، إلى الفكر الذي يتيح ضرباً آخر من الإشباع اللذي . هكذا ، وبفضل **الدافع إلى المعرفة** ، تستمر أفعال تفكيرية تمهيدية في الحلول محل الفعل البديل . فالفعل المرجأ سرعان ما ينوب منابه استغراق المريض في التفكير وتلكؤه فيه ، بحيث أن العملية برمتها تُنقل ، مع حفاظها على جميع خصائصها ، إلى أرض جديدة ، على منوال الأمريكان الذين ينقلون أحياناً بيتاً برمته دفعة واحدة من مكان إلى آخر .

سأجترىء الآن، بالاستناد إلى الاعتبارات السابقة، على تحديد العامل السيكولوجي ـ وقد طال البحث عنه ـ الذي يضفي على منتجات العصاب الوسواسي طابعها « القهري » . فالعمليات التفكيرية تغدو

(٢٢) أرجح الظن أن القدرات العقلية الرفيعة عند العصابيين الوسواسيين مرتبطة بهذه الواقعة .

قهرية متى ما أنجزت ـ نتيجة لكبح واقع على الجزء الحركي من الجهاز النفسي (بحكم الصراع بين حفزتين متضادتين) ـ بإنفاق في الطاقة مرصود في العادة كماً وكيفاً للعمل وحده ، أي متى ما أنتجت **أفكاراً وظيفتها أن تحل نكوصياً محل الأفعال** . ولا أحد يماري ، في ما أعتقد ، فى صحة الفرضية التي تقول إن العمليات الفكرية تُؤدى في العادة ، ولأسباب اقتصادية ، بنقل اقل فى الطاقة (وربما إلى مستوى أعلى) مما تستلزمه الأفعال التي يكون الغرض منها تفريغ وجدان أو تعديل العالم الخارجي .

إن ما يفلح ، في صورة الوسواس ، في شق طريقه إلى الشعور بقوة مسرفة ، يغدو في حاجة إلى الحماية من جهود الفكر الشعوري الرامية إلى تفكيكه وتفتيته . وقد رأينا من قبل أن هذه الحماية تتوفر بفضل **التحريف** الذي يخضع له الوسواس قبل أن يتأتى له أن يصير شعورياً . بيد أن هذه ليست هي الوسيلة الوحيدة المستخدمة . ففي العادة ، وعلاوة على ذلك ، يُسلخ الوسواس عن سياق موقفه الأصلي الذي كان سيمكن فيه ، على الرغم من التحريف ، فهمه في يسر وسهولة . وبهذا القصد يندس ، من جهة أولى ، **فاصل زمني** بين الموقف الإمراضي والوسواس المتولد عنه ، وهذا ما يضلل الفكر الشعوري في بحثه عن السببية ؛ ومن جهة ثانية ، يُفصل مضمون الوسواس عن علاقاته وأسيقته الخاصة عن طريق **التعميم** .

إن « قهر الفهم » عند مريضنا يقدم لنا مثالاً على هذه العمليات (ص ٨٤) . وهاكم مثالاً آخر أفضل بعد : فقد حرَّمت إحدى المريضات على نفسها أن تتزين بأية حلية ، على الرغم من أن العلة الظرفية لهذا التحريم كانت حلية بعينها حسدت أمها عليها وكانت تأمل أن ترثها يوماً . وأخيراً ، فإن من عادة الوسواس أن يستخدم ، ليحمي نفسه من المجهود الذي يبذله الفكر الشعوري لتفكيكه وتفتيته ، ألفاظاً مبهمة أو ملتبسة المعنى (هذا إذا شئنا أن نميز هذا الأسلوب عن

إوالية التحريف الحقيقي) . فهذه الألفاظ تتمكن ، **بعد أن يساء فهمها** من قبل المريض ، من الاندماج في « الهذاءات » ، ومن ثم فإن كل ما سيشتق من الوسواس أو كل ما سينوب منابه لاحقاً سيرتبط بهذا المنطوق اللفظي المساء فهمه ، وليس بالفحوى الحقيقية للوسواس . على أنه في مستطاعنا مع ذلك أن نلحظ أن « الهذاءات » **تسعى جاهدة الى** عقد روابط جديدة على الدوام مع فحوى الوسواس ومضمونه اللذين ما لقيا قبولاً في الفكر الشعوري .

بودي أن أعود مرة ثانية إلى الحياة الغريزية للعصابيين الوسواسيين ، لأبدي بشأنها ملاحظة أخرى بعد . فقد كان مريضنا ، بالإضافة إلى سائر سماته الأخرى ، « شماماً » ، فكان في مستطاعه في طفولته ، مثل الكلب كما قال ، أن يتعرف أي إنسان من رائحته ، وحينما شب عن الطوق بقيت الأحاسيس الشمية تحتفظ بالنسبة إليه بأهمية تزيد مما هي عليه لدى غيره من الناس[٢٣] . وقد وجدت شبيه هذه الوقائع لدى عصابيين آخرين ، من الوسواسيين والهستيريين على حد سواء ، وانتهيت إلى أن آخذ في اعتباري ما يكون اللذة الشمية ، الخامدة منذ الطفولة ، من دور في تكوين العصاب[٢٤] . وبوجه الإجمال ، يجوز لنا أن نتساءل عما إذا لم يكن ضمور حاسة الشم لدى الإنسان ، بنتيجة أخذه بالوضعية المنتصبة ، وما ترتب عليه من كبت عضوي للشهوانية الشمية ، يلعب دوراً كبيراً في قابلية الإنسان للإصابة بالأعصبة . وعلى هذا النحو قد يتأتى لنا أن نفهم لماذا تحتم على الجنسية تحديداً ، طرداً مع ارتقاء حضارة الإنسان ، أن تتحمل تكاليف الكبت . ذلك أننا نعلم منذ زمن بعيد مدى الارتباط

(٢٣) سأضيف انه كانت لديه في طفولته ميول كوبروفيلية ، (الشغف بالبراز . «م») قوية . وهذا جدير بأن يربط بإيروسيته الشرجية المشار اليها آنفاً (ص ١٣٩) .

(٢٤) في بعض أشكال الصنمية ، على سبيل المثال .

الوثيق ، في التنظيم الحيواني ، بين الغريزة الجنسية وحاسة الشم .

ختاماً ، بودي أن أعرب عن الأمل في أن يكون في مقالي هذا ، على قصوره من كل النواحي ، ما يحفز باحثين آخرين على الإقبال على دراسة العصاب الوسواسي ، وعلى تسليط مزيد من الضوء ، من خلال التبحر في هذه الدراسة ، على مكوِّناته . وعندي أن العلامات الفارقة ، التي تميز هذا العصاب عن الهستيريا ، ينبغي البحث عنها ، لا في الحياة الغريزية ، وإنما في المضمار السيكولوجي .

لا يسعني طي صفحة مريضي قبل أن أتكلم عما تركه فيّ من انطباع من أنه كان منشطراً إلى ثلاث شخصيات : شخصية لاشعورية ، وشخصيتين قبشعوريتين بينهما يتأرجح شعوره . فقد كان لاشعوره يضم نزعات كبتت في وقت مبكر من عمره ، ويمكن لنا أن نسميها أهواءه وميوله الشريرة . وكان مريضنا ، في أحواله العادية ، طيباً ، محباً للحياة ، ذكياً ، مرهفاً ومثقفاً ؛ لكنه كان ، في تنظيمه النفسي الثالث ، يتبدى متطيراً زاهداً ، بحيث كان يمكن أن يكون له رأيان في الموضوع الواحد وتصوران مختلفان للحياة . وكانت شخصيته القبشعورية الأخيرة هذه تشتمل أساساً على تشكيلات ارتجاعية مضادة لرغباته اللاشعورية ، وكان من السهل أن نتوقع ، فيما لو أن مرضه طال أمده أكثر ، أن تبتلع شخصيته هذه شخصيته العادية .

وتتاح لي الآن الفرصة لمعالجة سيدة تشكو من عصاب وسواسي خطير ، وقد انشطرت شخصيتها على النحو نفسه إلى شخصية حليمة ومرحة وأخرى شديدة الاكتئاب وزاهدة . وهذه السيدة تبوِّىء شخصيتها الأولى مكانة الصدارة باعتبارها أناها الرسمي ، بينما هي راسفة في الواقع تحت سلطان شخصيتها الثانية . وهذان التنظيمان يشقان كلاهما منفذاً إلى شعورها ، ولكن خلف شخصيتها الزهدية يكمن لاشعورها الذي هو مجهول منا جهلاً مطبقاً ، وهو مكوَّن من أقدم نوازعها ورغباتها التي مضى زمن طويل على كبتها .

ملحوظة
(أضيفت سنة ١٩٢٣)

إن المريض ، الذي رد إليه التحليل الذي سردت تفاصيله في الصفحات السابقة عافيته النفسية ، قتل في الحرب الكبرى ، ككثرة غيره من الشبان الممتازين ممن كان يمكن أن تعقد عليهم آمال عراض .



الفهرس

مؤلفات سيغموند فرويد صادرة عن دار الطليعة

- مدخل إلى التحليل النفسي.
- نظرية الأحلام (طبعة ثانية) .
- ثلاثة مباحث في نظرية الجنس (طبعة ثانية) .
- الحياة الجنسية .
- علم ما وراء النفس (طبعة ثانية) .
- الكف ، العرض ، الحصر .
- الحلم وتأويله (طبعة رابعة) .
- مستقبل وهم (طبعة ثالثة) .
- قلق في الحضارة (طبعة ثالثة) .
- الهذيان والأحلام في الفن (طبعة ثانية) .
- ابليس في التحليل النفسي (طبعة ثانية) .
- مساهمة في تاريخ حركة التحليل النفسي (طبعة ثانية) .
- التحليل النفسي للهستيريا : حالة دورا .
- حياتي والتحليل النفسي .
- مسائل في مزاولة التحليل النفسي .
- الطوطم والحرام .
- الأنا والهذا .
- التحليل النفسي لرهاب الأطفال : هانز الصغير .
- * ـ النظرية العامة للأمراض العصابية .
- * ـ مختصر التحليل النفسي .
- * ـ أفكار لأزمنة الحرب والموت .
- * ـ خمسة دروس في التحليل النفسي .
- التحليل النفسي والفن .
- علم النفس الجمعي .
- محاضرات جديدة في التحليل النفسي .